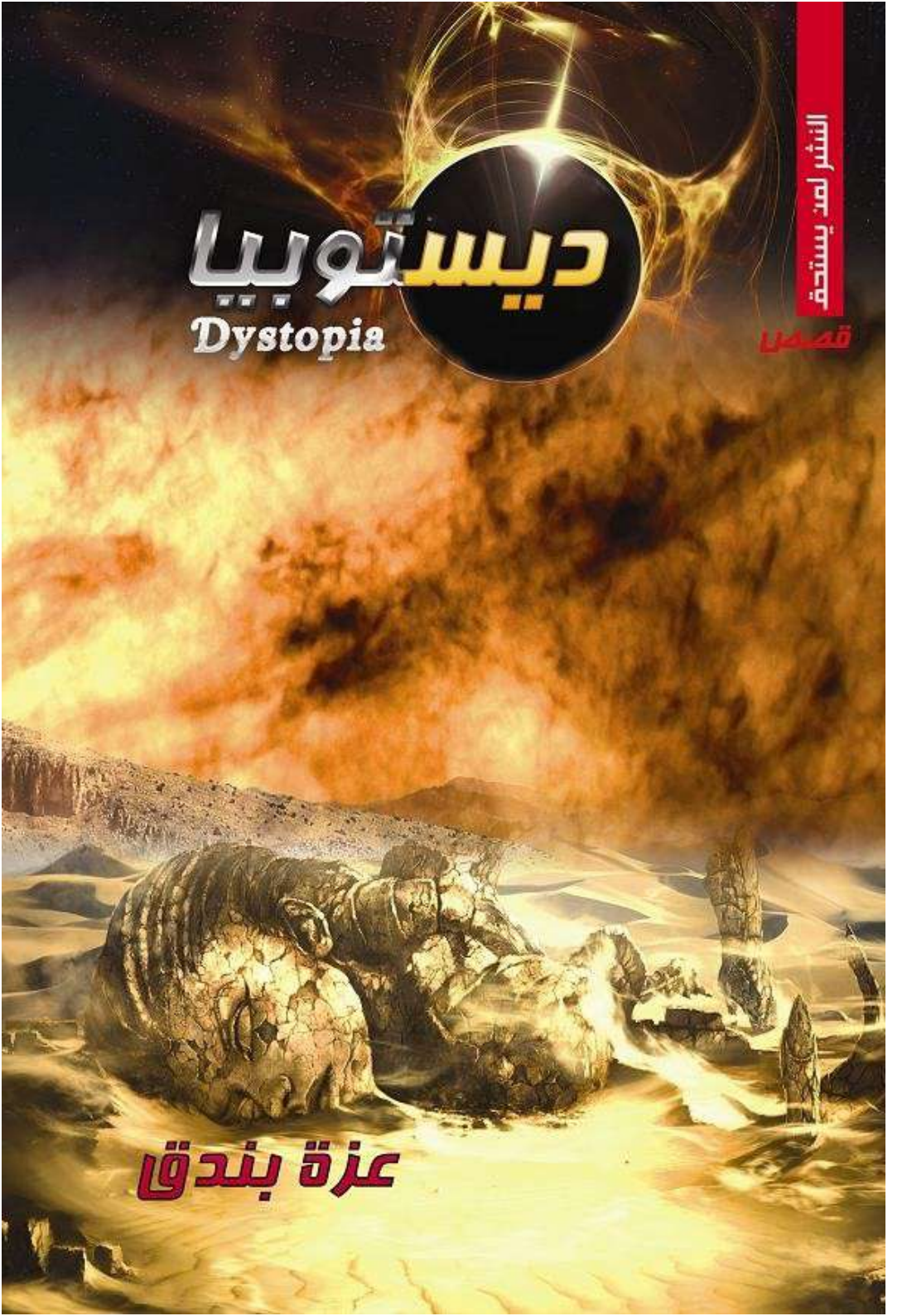
النشر لهذ يستحق
قصص
ديستوبيا
Dystopia
عزة بندق

تقديم :

نحن هنا أمام مجموعة قصصية متنوعة الأفكار والأجواء، وربما التنوع هذا يناسب جدا قارئ القصة القصيرة، الذي لا يمتلك النفس الطويل لقراءة ذات خط واحد لا يتغير، فجاءت بعض القصص اجتماعية، وبعضها أقرب لأدب الخيال والإثارة، وبعضها يحمل الإسقاط السياسي.
حاولت عزة بندق في هذه المجموعة الخروج عن خط الكتابة النسائية المتعارف عليها، من نقاش أحاسيس ومشاكل المرأة فحسب، وخرجت ببطلاتها –إلى حد كبير- عن نطاق أنوثتهن، ليكنّ جزءً من مجتمع شامل يحتوي الرجل والمرأة معا كـ (إنسان)، ووازنت في الحديث على لسان أبطالها رجالا ونساء.

وربما أجمل ما في المجموعة تلك الأعمال التي تتناول المواقف السياسية في مشاهد بسيطة عميقة أوصلت المعنى دون حماسة مفتعلة، أو ثورية هي (موضة) حالية في كتابات الشباب؛ لكن الكاتبة هنا حرصت على أن تقدم قصصها في صيغة تبقى بعد انقضاء زمن الثورة والانفعال، وترتبط بالمجتمع الذي يعيش تلك السياسات ويربيها في أجياله، كي يعانيها بعد ذلك، ولا يمل شكواها.
المجموعة كتبت على مدى زمني واسع بعض الشيء، فبدا نضوج الكاتبة أكثر في الأعمال التي كتبتها مؤخرا، وينم ذلك عن قلم ننتظر منه الأفضل دوما.

إيمان الدواخلي

شعرت بالمتعة وأنا أتنقل بين قصة وأخرى في هذه المجموعة. تارة أذهب إلى المستقبل المجهول، وأسراره الغافلة في قلب الرمال في قصة الخيال العلمي "ديستوبيا"، وتارة إلى أعماق البحر والفانتازيا في قصة "أمواج". أبحث كالملهوف عن البطلة النبيلة في قصة "مسألة غباء". أضحك بشدة واستمتاع مع "م ط ج"، وينتابني الحزن مع ما يصيب البطلة في "وصلة حب" عزة بندق كاتبة واعدة. تجيد فنون القص والحكي، وتبرع في رسم الشخصيات، والغوص داخل أغوارهم النفسية. تمتاز بسلاسة الأسلوب وعذوبته. تبحث دائماً عن أفكار جديدة غير مطروقة من قبل، وأتوقع لها في المستقبل القريب أن يبرز اسمها بوضوح بين الكُتاب الشباب.

علاء محمود

***

أكثر ما يميز عزة بندق في رأيي هو الإصرار والحماس والسعي المستمر للتطور، وهي الصفات التي تصنع الكتّاب الناجحين.. هذه المجموعة القصصية تحوي بين دفتيها مجموعة متمايزة من القصص ذات المضامين المختلفة، بعضها قد يجده القارئ رائعًا وبعضها قد يجده على الحافة بين المحاولة والنضج.. بعضها قد

يجده غامضًا وبعضها الآخر مباشرًا.. لكن الشيء المؤكد أنه سيجد بينها ما سيعجبه ويؤثر فيه.

أحمد عبدالمجيد

***

تمتاز مجموعة ديستوبيا بإنسانيتها و لغتها البسيطة التي تراعي المستويات المختلفة للقاريء مع عمق الفكرة لذلك ستقرأ سطورا تم صياغتها بعناية فائقة حتى في تناولها للقضايا الاجتماعية و الإنسانية بلمحة رومانسية جادة تجعل القاري يصل للنهاية وكأنه تناول فنجانا من القهوة الامريكية دوبل اسبريسو ..فهي جرعة مكثفة و مركزة تستطيع أن تخرج منها مبتسما .

محمد سامي البوهي

" لن تتمكن أبداً من أن تحس بشعور إنساني طبيعي بعد الآن . كل شئ بداخلك سيموت . أبداً لن تملك القدرة على الحب أو تكوين الصداقات أو التمتع بالحياة أو الضحك أو اختبار الفضول أوامتلاك الشجاعة و النزاهة . ستصبح فارغاً . سنعتصرك لتغدوا فارغاً تماماً و حينها فقط سنعيد ملأ كيانك بأفكارنا نحن . "

1984

جورج أورويل

مسألة غباء

- مش موجودة في أوضتها ازاي.. هتكون راحت فين يعنى؟

قالها وهو يندفع كالمجنون داخل حجرتها، وكأنه سيجدها مختفية بين طيات الثياب، أو ربما تحت السرير، كما كانت تفعل وهي صغيرة إذا ما أحست بشيء من الخوف.

قالت محاولة تهدئته:

- اهدى بس ياخويا وهي هتظهر يعنى هتروح فين تلاقيها نزلت كليتها بدري وللا حاجة.

***

دائمًا ما كانت مثيرة للمشاكل (هي)، هذا ما فُرض عليها قسرًا، أتت للدنيا كما كانت تحب أمها أن تقول _ في الوقت الضايع، رغبة منها في إثارة ضيقها ليس أكثر

فدائمًا ما كانت تبادر(هي) إلى تقطيب حاجبيها وزم شفتيها معلنة عن غضبها، لتسارع أمها بإطلاق ضحكة عالية وضمها لحضنها ولم تكن لتتملص منها إلا وقد تنحي حنقها جانبًا مفسحًا الطريق أمام ابتسامتها الجميلة إثر إضافة أمها بأنها " آخر العنقود " وآخر من سيهنأ بحضنها.

وفي تلك النقطة كانت محقة، فلم يهنأ أحد سواها بحضن أمها، بل لم يهنأ أحد على الإطلاق، فسرعان ما أسلمَت الروح وتركتها تواجه الحياة وحدها. أينعم كان معها باقي إخوتها إلا أن فارق السن الكبير بينهم وبينها فرض عليها حاجزًا من العزلة، وسورًا

عاليًا بنته (هي) أو كانت الظروف.. ربما نعم وربما لا، (هي) لا تكترث أو بالأحري لم تعد تكترث.

***

- طب حاول تطلبها عالموبايل كده..
- مانا اتزفت عملت ده عشرين مرة وكل مرة يعطيني غير متاح.

قالت وقد بدأ صوتها في الاهتزاز إثر انفعالها:

- يعني كان لازم تشد معاها امبارح يا (علي)؟

التفت إليها بغضب، وكأنما وجد فرصته في التنفيث عن غضبه هو الآخر

- أشد على مين انتي كمان، وهي اعطيتنى فرصة أساسًا دى كانت بترد على الكلمة بعشرة.

قالت بلهجة أقرب للصراخ:

- مانت عارف ان دى طريقتها في التعبير عن الي جواها يا اخي.

و تغير صوتها لما يشبه الأنين عند قولها:

- بس هي بتبقى كده بتحاول تداري ضعفها مش اكتر.

***

(هي) فقدت الثقة فيمن حولها بعد موت أمها. لا تدري ما العلاقة بالضبط، ولكن ربما لإحساسها بالضياع، بعدما تركتها أمها

وحيدة. ولكن ما ذنبها؟ ليست هي من اختارت الموت، ولكن كان عليها أن تقاتل أكثر.. كان عليها أن تتمسك بالحياة لأجلها (هي) على الأقل!!

لمَ تكبد نفسها مشقة الاعتماد والثقة في أي كائن كان؟ كي تفقده، وتعرض نفسها لزلزال آخر يقضي على البقية الهشة من قوتها؟! قوتها التي تغنّت بها أمها كثيرًا حتى دنوّ أجلها، فهي دائما ما كانت تقول بأنها ربما تكون الصغيرة.. صغيرتها- ولكنها أقوى إخوتها. كانت في كثير من الأحيان تشعر بأن أمها مخطئة، فهي في حقيقة الأمر أضعف خلق الله.

(هي) لم ولن تفهم طبيعة النفس البشرية، فهم دائمًا ما يطلقون أحكامهم اعتمادًا على المظاهر، لذا كانت هي دومًا مرهِقة ومثيرة للمشاكل و.. غبية!

الناس في حقيقة الأمر لا يهتمون سوى بما يرونه رؤى العين.. لم يرها أحد تبكي قبلًا، وهذا أكسبها لقب صاحبة الأعين الزجاجية.. أجل (هي) لم تكن لتبكي أمام أحد قط؛ ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها لم تكن تبكي على وسادتها كثيرًا، حتى تغرق في النوم. هم الأغبياء إذ لا يعلمون أن الزجاج يمكن كسره بضربة واحدة.

(هي) لا ترى سوى اللونين الأبيض والأسود، وماسواهما لم يسبق واعتدّت به. هي ترى هذا مبدأ وخُلق وقوة، ويراه الآخرون تعنتًا وديكتاتورية و.. غباء.

***

- على فكرة انتِ كده مش هتفلحي، يابنتي لازم تمشي أمورك.. الأمور مابتتاخدش كده، مافيش مانع يعنى نعمل زى ما الناس بتعمل

- أيوة بس ده نفاق وكذب وانا مش جبانة ولا ضعيفة عشان اعمل ده

- انتِ اللي بدأتِ بالغلط وهي..

قاطعته بسرعة:

- هي كذابة وانت وأنا عارفين كده كويس

- بس الناس مش عارفين

- مايهمنيش الناس

اندفع أخوها نحوها وجذبها بعنف..

- طول عمرك هتفضلي غبية

- أنا مش غبية

ورفعت رأسها، لتكمل باعتداد:

- أنا على حق

قال والشرر يتطاير من عينيه:

- اسمعي انا مايهمنيش الكلام الفاضي ده.. طول ما انتِ عايشة معانا في البيت ده يبقى هتعملى اللي أنا بقولك عليه

قالت بحدة، وهي تحاول التملص من قبضته:

- حتى لو غلط؟؟

أفلتها وهو يقول بعنف:

- حتى لو زفت

***

دائمًا ما تعيش في صراع بين ما يريدون هم، وما تريد (هي)، ولكنها لا تستطيع فعل ذلك بعد الآن. يهددها أخوها بشأن البيت الذي يأويها.. حسنًا ستتركه ينعم به، وستذهب إلى أي مكان آخر، حيث لا تجد من يقيدها، ويمارس ضغوطه عليها بهذا الشكل. حتى أختها الوحيدة تأخذ صفه هو!

حسنًا.. هم اختاروا.. واختارت (هي)

***

ملقيًا بهمومه كلها، ارتمى بثقل جسده على تختها، واضعًا راحتيه حول رأسه، في محاولة منه لمنع مخه من الارتداد خارجًا، وراء أخته التي لم تعد.

هل فعلا تركت البيت مثلما هددت إثر مشادة الأمس؟ ولكن كيف سمح لأخته الصغيرة بفعل ذلك؟

كيف طاوعته نفسه على أن يكون بهذه القسوة؟ هو يعلم جيدًا أنه عليه أن يكون رحيمًا، لأنه يقوم بدور الأب والأخ في الوقت ذاته.

" ولكنها هي من تستفزني دومًا بعنادها وقوتها المصطنعة"

ها أنت قلتها بنفسك.. مصطنعة، أنت تعلم جيدًا ما يحدث لها كل عام في ذكرى موت أمنا السنوية.. أبدًا هي ليست بغبية، إنك أنت الغبي، لأنك لم تحاول احتوائها. والآن هي هربت من تعنتك كله. "

هز رأسه بعنف، في محاولة منه لطرد الخيالات التي تؤرقه، واندفع خارجًا..

- لن أتركها بالسهولة تلك، سـ..

ارتطم بالقادم، وكاد يتعثر، لولا أن أمسكته يد صغيرة يعلمها جيدًا..

- ايه يا بني حاسب هتاخد البنت في سكتك.

أكملت أخته بابتسامة حانية مرتاحة فرحة، وسرعان ما أشارت له خفية أن كن هادئًا..

- انت رايح فين؟؟

- كـ كـ كنت رايح...

وكأنما تذكر شيئًا هامًا..

- انتِ كنتِ فين يا أبلة؟

قالها موجهًا حديثه لصغيرته، راسمًا على وجهه الضيق، الذي سرعان ما انزاح جانبًا، مفسحًا الطريق أمام ابتسامة أخته الهادئة.

- كنت بجيب عيش للفطار

يلا اسبقوني وانا هحصلكم

قالتها بلهجة بدت آمرة، فما كان من اختها إلا أن هزت كتفيها باستسلام، كمن اعتادت هذه الطريقة في الحديث.. وهمّ أخوها بالخروج هو الآخر، إلا أنه تردد، فالتفتت له بتساؤل.. فحسم أمره، وقال بحنان، وهو يربت على وجنتيها:

- انتِ مش غبية

أومأت برأسها، وقد اتسعت ابتسامتها، لتشمل فراغ حجرتها بأكمله، واتجهت بسرعة نحو مكتبها، والتقطت منه ورقة، كانت قد تركتها لتخبرهم فيها بأمر رحيلها، سرعان ما مزقتها ورمتها جانبًا، لتتجه خارجًا إثر مناداتهم لها، وأقبلت عليهم مبتسمة، حيث تذكرت كلمات أمها الأخيرة:

"خدي بالك من اخواتك"

حِمل السنين

نظروا له بلا اكتراث، وتحولوا عنه لزبائنهم في حلقة السمك. عظام القدم اليمني ناتئة تشي بكسر أو التواء لم يتجبر، ولم تنجح سنوات عمره الطويل في الشفاعة له فظل العظم علي حالته يهدد بالتهشهش في أي لحظة. خطواته بطيئة ولكنها ثابتة. يعرف مسعاه جيدا. يداه المعروقتان تتشبثان ببعض الكراتين التي يرفعها لرأسه؛ كي يشاركه جسده كله في تخفيف العبء. حمله خفيف من شدة ثقله، لكنه لا ينافس خفة و رشاقة لسانه الذي اندفع بصوته المبحوح غير آبه بما ينوء به ظهره؛ ليتبعه جميع الرجال في ترديدها واحدا تلو الأخر حتى لتبدو الكلمة صدي صوت له وحده: حي حي حي.
تكونت ابتسامة ساخرة في أعماقه، فبالرغم من أنوفهم نجح في نيل انتباههم. ودون أن يتوقف لحظة واحدة مضي يمشي رافعا حمولته.

أول كلمة حب

- يومٌ جميل
قالتها امرأة شابة، في منتصف العشرينات من عمرها، وهى تصفق بيديها بجذل كالأطفال. قالتها وأطلقت ضحكة صافية، وهى تتجه بلهفة نحو رجل يعطيها ظهره، مستندًا على الإفريز الأمامي للشرفة المطلة على حديقة المنزل، وسرعان ماالتفت إليها يستقبلها بشلال من الحنان، يتدفق رويًا من بين عينيه.
اقتربت منه، وهى تهتف بمرح:
- لقد كنت شاردًا.. فيم كنت تفكر؟ هيا اعترف.
رفعت إصبعها محذرة إياه بغضب مصطنع:
- إياك والتفكير في أخرى غيري.
أمسك يدها برفق، فاستكانت بحنان، لتنسي ما كانت تهم بقوله من كلمات، ليسيطر صوت الصمت وحده، إذا ما كان للصمت صوتًا، أو لعله كان صوت أفكارهما، التي تناقلتها عيونهما.
طال صمته وهو ذائب في عينيها، فسألته هي بهمس:
- أسمعني إياها..
قال بحنان:
- أحبكِ
ارتجفت لسماعها وأردفت قائلة:
- كيف تقولها كل مرة بالإحساس ذاته !

- بل أنا من يريد أن يسألكِ كيف تسمعينها كل مرة بذات الإحساس!

بدت الحيرة في عينيها، اللتين تنافسان زرع حديقتهما في خضرته، فملس بهدوء على شعرها الناعم كالقطن..

- كل يوم يمر -وأنا أخبركِ كم أحبكِ- يكون قد ازداد عشقي عن سابقه، وإن كنتِ تظنينها كما هي بالإحساس ذاته لهو خطئي أنا إذًا، وسأعمل على إصلاحه من الآن فصاعدًا.

ازدادت حمرة خدها، وتوردت شفتاها بشدة، فغدت كالثمرة التي تنتظر من يقطفها. ألقت بنفسها بين يديه، فتلقاها هو نحو صدره، وتنهد بعمق، وهمّ بقول شيء ما، إلا أنها استوقفته عندما سألته بقلق:

- هل ستحبني هكذا دومًا؟

- وهل عندكِ شك؟

تنهدت لتسأله مرة أخرى، وقد أعلن المرح عن وجوده هذه المرة:

- ستظل تحبني مهما حدث؟

- اها

قالت بابتسامة ماكرة، وهي ترفع رأسها بحركة مباغتة، وتبتعد ببطء نحو الخلف، فابتسم بدهشة لمرآها..

- إذن ستظل تحبني عندما أخبرك؟

- تخبريني بماذا؟

قالت، وقد بدأت تعدوا نحو المطبخ..

- أخبرك بأن لا غداء اليوم، لأن الطعام احترق .

أتاه صوت ضحكاتها، فاندفع هو الآخر نحو المطبخ، وقد أدّى به اندفاعه للارتطام بمن أمامه..

- اه معلش يا بابا ما اخدتش بالي، انت محتاج حاجة وللا ايه؟ أنا قربت اخلص الغدا اهه.

تلعثم، ولم يجد ما يقوله، فاكتفى بابتسامة مرتبكة..

- لا مافيش دانا كنت عاوز أشرب.

قالت ابنته بسرعة، وهي تقوم بحمل الأطباق للسفرة:

- حاضر يا حبيبي ارتاح انت وانا هجيبهالك.

أومأ برأسه دون كلام، واتجه من فوره نحو الشرفة. وفي طريقه، مر على صورتها، التي تمثلها كالثمرة الناضجة، كما سبق وأن رآها. ولكنه هذه المرة لم يفت عليه أن ينتبه للشريط الأسود، الذي يزين طرفها، فأغلق عينيه، وبقليل من الجهد استعاد مشهدهما معًا، وهمس بخفوت:

- أحبكِ اليوم أكثر حبيبتي.

وقفة / تشغيل

- ماذا تعني بمن أنت؟!

سأله بحذر زاويًا ما بين حاجبيه، فأجابه بتلعثم

- أقصد.. أقصد ما هدفي بالضبط من حياتنا هذه؟

بدا وكأنه سؤال بلا معنى ، إذ استمر الأول في تقطيبة حاجبيه

- هدفك أن تساعد الآخرين فأنت جزء من كيان عملاق

قالها بابتسامة واثقة سرعان ما انزوت أمام نظرات الآخر المستعطفة والحادة في الوقت ذاته، في تمازج غريبًا بدا، فأخذ نفسًا عميقًا استطرد بعده بعمق

- دورك هام، لا تدع أحدًا يخبرك العكس.

- ولا تتوقف حتي يُطلب منك.

- أعلم أنك مشوشًا بعض الشيء بعد معايشتك للحادث الذي ألّم بأبيك ولكن تلك سنة الحياة، كان أبوك مثالًا للابن الصالح وعندما جئت أنت لدنيتنا هذه كان أبًا صالحًا لك ، ولأصدقائه كان مخلصًا يعتمد عليه، ولعمله كان وفيًا لا يكل ولا يمل، وأصدقك القول بالرغم من كل ما مررنا به سويًا لم أسمعه يومًا يسألني حول الهدف وراء وجوده !

- ولكن...

- نحن أسرة واحدة، نقوم بكل شيء سويًا، نعمل معًا، نشعر بالتعب معًا، نفرح لمجهودنا معًا

عض على شفتيه ليكمل:

- ونحزن لفقدان أحدنا معًا

- ولكن يا جدي، أملك حلًا كيلا نفقد أحدنا بعد اليوم، لم يعد لي سواك كما تعلم، وأخاف أن يأتي اليوم الذي أراك فيه تذهب بعيدًا عني دونما رجعة.

نظر له جده بتساؤل، فأكمل بحماسة:

- نستطيع أن نتغير ونفكر، بإمكاننا أن نتوقف إذا ما شعرنا بالتعب يا جدي لكي...

قاطعه لأول مرة بصرير بدا هادرًا في أذنيه..

- ما الذي تهذي به يا ولد !! لا تتمادى وإلا..

- صدقني يا جدي ستكون البداية لحياة أكثر راحة لنا و...

بتر عبارته، ليتلعثم مرة أخرى كلما شعر بالخوف، إلا أن حماسه سرعان ما شد من أزره، فانطلق مكملا:

- لنا ولهم..

بدا جده غير مصدقٍ للترهات التي يتفوه بها حفيده. على امتداد عمره الطويل لم يسمع أو يمر بمثل ما يقصه عليه ابن ابنه، الذي فقده قبل بضعة شهور أو أكثر، فلم تعد الأيام أو السنون تشكل فارقًا، فهو يفقد من يحب واحدًا بعد الآخر.. فقط بقي هو ليعمل. هو بخير طالما يعمل، هو بأمان طالما هم راضون عنه. ولكن الأمر ليس مقصورًا عليه، فهو يرى حفيده الوحيد، الذي تبقي له من العائلة والأحباب والأصدقاء، يهم بتدمير نفسه باعتناقه مجموعة من الأسئلة والمصطلحات الغريبة، التي تطرق أذنيه العجوزتين لأول مرة منذ سنين طوال.

- أنت لن تقول مثل هذا الكلام مرة أخرى.

همّ بمقاطعته، إلا أنه صرخ فيه بكل قوته:

- لن تتغير، ولن تفكر، ولن تشعر بالتعب.. أنت خُلقت لتعمل وتتعب، لا لتتغير وتفكر.. كلماتك الثلاث هذه لهي بداية هلاكك، وأنا لن أسمح لك بتدمير نفسك ما بقيت حيًا.

تابع بنفس الغضب الأعمى:

- هل تسمعني؟ ما بقيت حيًا، أتفهم؟!

***

- ليتك بقيت معي يا جدي، كي تمنعني كما تقول. كنت لأقبل هذا عن طيب خاطر، صدقني. أما الآن وقد رحلت عني، فلم يعد لدي ما أخاف عليه. أكثر ما يؤلمني يا جدي هو عدم إيمانك بي. كنت أرغب بأن تصدق ما أقوله، فقد كان من شأنه أن يطيل من عمرك، أو يقلل من تعبك وإنهاكك في أيامك الأخيرة. أخبرتني أنك بأمان طالما تعمل، ولكن ماذا حدث عندما توقفت عن العمل يا جدي؟.. ألقوك – ودون ذرة تردد واحدة – حيث لا يعود أحد.

أكمل بدموعه، التي تثاقلت، فلم تعد عيناه قادرة على حملها..

- قاموا باستئصالك كما الورم الخبيث، الذي لا فائدة ترجي من شفائه.. لم يكلفوا نفسهم عناء معالجتك. ليتك استمعت إليّ يا جدي عندما أخبرتك بأن الأمان الحقيقي نحوزه من إرادتنا نحن.. إرادتنا بالعمل، وإرادتنا أيضًا بالتوقف عن العمل. سوف أتوقف الآن يا جدي، لن أتردد بعد اليوم.. عزائي الوحيد أنني على حق، ولا تسألني من أين آتي بيقيني هذا، فأنا آتي به منك أنت. أجل يا جدي أعلم بأنك كنت دومًا مثالًا للعامل المحترف، الذي لا تصدر عنه آهة شكوى واحدة مهما ثقل حمله. ومن أجلك وحدك، ولأبي من قبلك، آمنت بأنه لابد من سبيل لتحقيق الراحة لكما.. راحة، وإن

كانت لدقائق معدودة، إلا أنها بداية، أثق بأنه سيأتي من يكملها بعدي.

أخذ نفسًا زفره بقوة، ليكمل بعده بحزم:

- سأتوقف دون أن يُطلب مني يا جدي.. سأتوقف لأنني أريد ذلك.

***

- وبعدين بقى في الشغلانة اللي مش جايبة همها دي. انتي كل يومين هتقوليلي تعالى شوفها !!
هو انا هلاقيها منك وللا
- انت بتقول حاجة؟!

زفر بحدة، وهو ينقل نظره بينهما بغضب..

- أبدا.. مالها المرة دى؟

- بتقف كل شوية.

- يعي ايه بتقف كل شوية؟ هو انا مش لسه مغير الموتور من ست شهور بس؟ وبعدين ماهي لازم تقف هو انتِ بترحميها !

زفرت هي هذه المرة، ومن ثم انفجرت فيه بعنف:

- بقولك بتقف بمزاجها، وبعدين تشتغل تاني من غير ما اقرب ناحيتها. بتزعق فيّ بدل ما تقول لي حاضر هشيلها خالص واجيبلك واحدة جديدة؟؟

هو بتأفف:

- ثواني بس أبص على مفتاح التشغيل جايز بيعلق منك.

قطع حديثه ليطلق صيحة انتصار..

- اهو يا ستي اشتغلت

صرخت بغضب:

- مانا بقولك هي بتشتغل بمزاجها، دى بتفصل كل ساعة إلا ربع تقريبًا

- اممم مش مشكلة طالما بتشتغل تاني، وبعدين المهم الهدوم بتطلع نضيفة ولا لا بعد ما بتفصل؟

هي بنفاد صبر:

- بتطلع نضيفة أيوة

- طب ماهي زى الفل اهه، مافيش مشكلة حصل خير.

قالت وقد عاودت الانفجار في وجهه، بعد أن نفد صبرها:

- أنا قلت هتتغير يعني هتتغير. مش حتة غسالة اللي هتمشي كلمتها عليّ وتشتغل وتقف وقت ما تحب

فغر فاه غير مستوعبًا لما تطلبه منه.. وبابتسامة مترددة أضاف:

- طب.. طب يرضيكِ ايه؟ أغير الخضّاض؟

هي بانتصار:

- لا... تغير الغسالة.

وَأتت بداية

- اشتقت إليكِ، ألا تدركين ذلك؟-

فغرت فاها محدقة به، غير مدركة لما يجب عليها أن تفعله، اقترب هو منها بتردد مستطردًا:

- مضى وقت طويل منذ تلاقينا.

جفلت هي، فتراجع خطوة مفسحًا الطريق أمام الفزع البادي في عينيها، وأطرق محاولًا إيجاد طريقة أخرى.

- ألا تذكرين كيف كنا معًا؟ لقد كنا مثار حديث الجميع.

رفعت عينيها إليه أن أكمِل أرجوك.. أردف وبريق السعادة يملأ محياه:

- كانوا يشعرون بالغيرة كلما تقاربنا، ولكننا أبدأ لم نأبه لهم.

قاطعته للمرة الأولى منذ بدأ حديثه، لتهمس بألم:

- حتى ارتكبنا تلك الغلطة البشعة، التي كادت أن تفتك بكل جميل عشناه معًا.

زلزله الحزن المتقاطر بين ثنايا حرفها، ووجد نفسه يتقدم نحوها، وكأنما بذلك يتمكن من تلقيه عوضًا عنها.

- كانت غلطة واحدة!

قالها بتخاذل يحمل قدرًا كبيرًا من الأمل والرغبة في أن تنسي وتغفر، كي يستطيعا بدء صفحة جديدة لم تُمس.

- ومن.. من يدريني أنها لن تتكرر؟

قالتها بتردد، فاندفع بسرعة:

- أنا

تحول التردد إلى رجاء، جعله يهتف بصدق:

- أعدكِ بحياتي، فقط امنحينا فرصة جديدة.

لم تشعر بما يحدث حولها، خلا العالم كله إلا منه، شعرت بلمساته التي تارة ما تكون حادة سريعة أو هادئة ومتأنية تارة أخرى، فقط استكانت وهدأت، كي ينتهي هو ويفرغ رغبته من خلالها.. آمنت بأن ذاك الهدف الحقيقي وراء وجودها..

استغرق وقتًا طويلًا هذه المرة، أطول من المعتاد في الواقع، أحست بالتعب يغزوها، وبالقلق يمتد عبر شلال من العرق يندفع ليغرقها، حتى كاد أن يُذهب بأنفاسها. إنه يمزقها.. ينتهك فراغها الساكن دون استئذان. ندمت لإعطائه هذه الفرصة، التي بدا واضحًا أنها ستبوء بالفشل مرة أخرى. أغلقت عينيها بألم، ليمتد السواد ويزيح اللون الأبيض، الذي كان يميزها.

- انتهيت

قالها بإرهاق قاطعًا أفكارها، في حين لم تحرك هي ساكنًا. لم تحاول حتى فتح عينيها، حتى طلب منها هو..

- انظري بنفسكِ..

ارتسمت ابتسامة مرهقة على شفتيه، وهو يشير أمامه مكملًا:

- نتاج لقيانا

ببطء فتحت عينيها، لتنظر حيث أشار.

- ألم أقل لكِ..

التفتت إليه بعينين مملؤتين بسعادة حقيقية هذه المرة. همّت بقول شيء، إلا أنها تراجعت عنه، عندما سمعت الصوت المرح:

- ماما.. كتبتها!

اقترن الهتاف بضحكة عالية فرحة

- كتبت أولى قصصي..

ألقى القلم على الورقة، ليلتقيا في عناق طويل، معلنين بداية جديدة.. لن تخاف بعد اليوم من أن تكون ورقة جوفاء، ولن يخاف هو من أن يجف مداده.. معا سيسطران قصة حبهما، التي لا تنتهي.. فقد التقيا اليوم، ولن يفترقا.. أبدًا.

ديستوبيا

/نـهايـة/

تصبب عرقه غزيرًا، مغطيًا جسده النحيف، الذي أخذ في الاهتزاز، جراء ركضه المتواصل. رفع يده في محاولة منه لحماية وجهه من ذرات الرمال، التي تتدافع لصفعه، وتعكير رؤيته ليسقط أرضًا، ويبتلع المزيد من الرمال، التي امتدت لتفترش المكان كله، وتملأه بلون أصفر رتيب، يحاكي لون وجهه الممتقع. استلقى على ظهره يلهث في عنف، ولم يحاول النهوض، والمزيد من الرمال تغمره وتغطي جسده كله.

**

ترى من أين تأتينا القدرة على تحديد الخطأ والصواب؟ أهي معتقداتنا التي تبنى في الأساس على معلومات تناقلناها وتوارثناها عبر الزمن، والتي تتراكم لتصبح غريزة؟

أم تأتي نتاج الظروف المحيطة، وبالتالي يصبح ما كان خطأ الأمس هو فضيلة اليوم؟! ولكن إذا ما كان هذا صحيحًا، فمن أين لنا أن ندرك إذا ما كنا نسير على الدرب الصحيح؟ كيف لنا أن نعرف إذا ما كنا نتبع طريق أجدادنا وآبائنا، بل وأنى لنا أن نتيقن إذا ما كان من المحتم علينا أن نتبع خطاهم؟

توقف عن الحديث، وأخذ نفسًا عميقًا ،أطلقه في زفرة قوية، أعلنت بوضوح عن استيائه، الذي أكدته انعقادة حاجبيه. لقد كان ذهنه مشغولًا بما عثر عليه أثناء رحلته الكشفية، التي اعتاد القيام بها في الصحراء، لشغفه الشديد وتوقه إلى اكتشاف الجديد خرج إلى الصحراء، وأي مكان أفضل للعثور على بداية جديدة، تطهر الإنسان من آثامه، وتدعوه لاستكشاف نفسه. رمى بنفسه إلى الصحراء المترامية، فتلقته هي بغوامضها وبرمالها الصفراء، حتي أنسته وشغلته قليلًا عن سواد عالمه.. عالمه الذي يخطو متعثرًا، عاصبًا عينيه عما هو مقدم عليه، صامًا أذنيه عما أتى سابقًا.

نجح في العثور على عدة مخطوطات من قديم الورق عتيقٌه، الذي اهترأت أطرافه وتمزقت، إلا عن قدر يسير. مذ اللحظة الأولى، التي وقعت فيها عيناه على المخطوطات، أيقن أن بها شيئًا خطيرًا، وأحس في قرارة أعماقه أن هذا الشيء سيكون حتمًا فيه الخلاص – أو هكذا أمل – لعالمه.

لم يذق طعم النوم.. كيف ينام وبين يديه يقبع سر الخلاص؟ عكف على دراسة الأوراق، ومحاولة فهمها، وسبر أغوار لغتها الغريبة. بدا له عمله هذا أهم ألف مرة من البحث عن الماء. خلا إلى نفسه، واعتزل العالم من حوله، غير آبهٍ لما يقومون به، أو يفكرون فيه. على كل حال كان واثقًا من أنه لا يضيع الكثير بعزلته تلك، فالجميع شاغلهم الوحيد كان توفير الطعام، والبحث المستمر عن المزيد والمزيد من المياه الآخذة في التناقص والتناقص.

عارض عقله فكرة أن يقضي ما بقي من عمره القليل وهومثلهم. لقد أضاع الكثير من حياته كالحيوان المسكين، الذي يعيش ليأكل ويتكاثر، وبعدها يموت ليفسح الطريق لمن يأتي بعده. ولكنه لن

يسمح بانتهائها على النهج ذاته. سيحاول التكفير عن أخطائه، كي يتمتع القادمون، حتى وإن لم يتمكن من ذلك هو.

\ وصية \

بدا مستسلمًا لمصيره، ولم يحاول إزاحة الرمال عن جسده، الذي بدأ في الاختفاء تدريجيًا تحت وطأة العاصفة الشديدة، التي لا تُبقي علي شئ. فقط امتدت يده تتحسس طريقها إلى الحافظة الموجودة في بنطاله، ليقبض عليها وكأنما يحميها. هو لا يعرف لماذا، ممن، أو لمن يقوم بحمايتها! ولكن هذا ما بدا له مناسبًا، وهذا ما فعل، وبعدها استكان مستسلمًا للعاصفة.

**

لا أهمية للوقت، وقد أضاع معظمه فيما لاينفع. لذا فهو أكثر تصميمًا الآن على فك رموز تلك المخطوطات، حتى وإن أحس بقرب ساعته، سيترك ملحوظاته، وما وصل إليه، كي يكمل من يأتي بعده ما شاء.. واختار القدر. ليس يدري كيف غاب عن ذهنه أن يذهب للمكتبة الرقمية، وهي الصرح الهائل لكل ما يبحث عنه من معلومات. خالية كانت من أي شيء، اللهم إلا المقاعد الشاغرة ونفسه. وبعد المرور بالبوابة الإلكترونية، التي سجلت بياناته بصوت آلي لا حياة فيه، انطلق من فوره، وهو يجول ببصره في المكان هائل الاتساع، الذي يتخلله بعض الأعمدة الطويلة المتفرقة. تقدم باتجاه أحدها، وعند اقترابه بدا واضحًا الفضاء المفرغ في

جسد العمود. تذكر أنه أتى هنا مرة -وقت كان صغيرًا- منذ ما يزيد على العشرين عامًا – في رحلة كانت قد قامت بها المدرسة. تنهد واقترب أكثر، حتى مال بجسده في الفراغ المتاح أمامه، واستند بروية على ما يشبه السرير الطولي، الذي احتوى جسده كله، وبصوت خرج بالرغم منه مهزوزًا همس:

- تصفح اللغات القديمة.

صدر أزيزٌ خافتٌ، انطلقت بعده مجسات نحو مقدمة رأسه، وتشابكت حولها، مكونة ما يشبه الخوذة، أخذت في تكوين ما يشبه الشرايين الصغيرة. وحين أضاءت، بدت وكأنها جزء حي من مخه الداخلي. أغمض العجوز عينيه، التي أخذت في الحركة يمنة ويسرة، معلنة عن بدء عملية انتقال المعلومات إلى عقله.

--

أنهى بحثه، وقد عثر على ضالته. لم يكن عنده شك في أنه سيعثر على ضالته، فالعلم لم يكن مشكلة هذا العصر؛ بل كان سمته السائدة. العلوم -وما أكثرها- والتقدم -وما أوسع رقعته-.. المكتبات الرقمية -وما أعظم ماتحويه من معلومات-. ولكن المشكلة أبدًا لم تكن في توافر العلم، وإنما في قلة استخدامه!

توقف العلماء عن تجاربهم، وضجت المعامل بأبحاثها، التي لم تجد من يكملها. اعتاد الناس حياة الدعة والكسل، كأنما وُجد العلم كي يتوقفوا عن التعلم! أنعم الله عليهم بالتقدم والرقي، واستكانوا هم إلى الفكرة، وكأنها حقهم المكتسب، فأذهبها الله من وجوههم، وبدأت المشاكل كلها دفعة واحدة. انفض الناس من حول العلم، فانفضت عنهم صحتهم. وبعد أن كانوا من المعمرين، الذين يزيد

عمر أصغرهم عن المائة، صاروا يموتون وهم بعد في العشرين، وأمسى كهلا من يكمل عامه الثلاثين!

بدأ في قراءة المخطوطات، والتي كانت نوعًا ما من المذكرات، التي تحكي واقع مجموعة من الأناس، الذين سبقوه وقومه. لم يرجع سر دهشته لوجود من سبقوهم، فهذا أمر مسلم به؛ ولكن ما تسبب في دهشته البالغة هو التشابه الشديد بين سمات عصره، وسمات ذلك العصر، الذي ربما سبقه بآلاف السنين.

كانت هناك الكثير من الكلمات المفقودة هنا وهناك، إلا أنه تمكن من فهم المغزى العام من السطور، التي حكت عن شعب عاش في مجد وتقدم علمي، لم يسبق لأي حضارة أن عاشته. وصفت السطور رقي الشعب وارتقاء أخلاقه وعلومه ومفاهيمه واتجاهاته. أخبرت السطور أيضًا عن وجود انسجام كبير بين جميع الأفراد، وانتشار الحب والاحترام. ولأن دوام الحال من المحال، ومن الواضح أن البشر تجمعهم صفة واحدة متأصلة، لا تختلف باختلاف الأزمنة وتعاقبها، فقد أخطأوا بشكل أو بآخر، مثلما أخطأ قومه بالضبط، وعوقبوا بما أسموه " الحرب التي أثرت على بنيتهم الفكرية " !..

إذًا، فمصيبة البشر جميعًا واحدة، تتلخص - مهما قلنا أو استخدمنا من عبارات منمقة - في كونهم بشرًا وكفى.

تقافزت عيناه، تلتهمان الأوراق بين يديه. لم يفهم على وجه الدقة كيف أتت نهاية من سبقوه.. كانت حروبًا أليمة، ولكن العطش كان أكثر إيلامًا. تغير كل شئ، تغيرت الأجساد لتنحل وتنحف

ويصيبها الجفاف، وتغيرت كذلك العقول ونضبت، ليحل محلها الظمأ والجوع.

لا يعاني الجميع من نفس الآثار بالطبع. فالدول القوية لا زالت تجد دومًا السبيل للجور على من هم أقل ثراءً وأكثر ضعفًا. ولكن هيهات.. فالظمأ يمتد دون أنف الجميع، ليشمل من كان قويًا، ويحطم أنف من كانوا يومًا يتغنون بقوتهم وذكائهم وسطوتهم و.. ارتوائهم. أخذوا يبحثون عن بدائل للماء في بداية الأمر، وعندما جدبت وجفت عقولهم، رأوا أنه من الأسهل الجور على ما هو من حق غيرهم. ولكن لن يمر هذا دونما عقاب، فالنهاية آتية لا ريب.!

إنه يحس بالكثير من التعب الآن، لذا فقد اختار الاستسلام.. لقد فعل ما رآه الحل الوحيد، وترك مذكراته للجيل القادم- إذا ما وُجد - لعلهم يتمكنون من إنقاذ أنفسهم.

وبصوت لاهث أضاف:

" لقد بلغنا مبلغًا كبيرًا من التقدم والرقي، وظننا بهذا أننا وصلنا قمة المجد.. أخذتنا النشوة، فلم نشعر بتسرب مجدنا من بين أيادينا، مع تسرب قطرات الماء التي أهدرناها لعقود وعقود، وأهدرنا معها كل ما قد تربينا عليه يومًا. أعمى التقدم بصيرتنا، وألهب العلم فكرنا، فأسلمنا له عقولنا، ووطأنا بأقدامنا القيم والقوانين، لنبتعد عن أهدافنا، كي نعلو أكثر وأكثر، متناسين أن السقوط بهذا لن يكون سوى أسرع وأسرع. أعلم بأني نشأت في عالم متقدم تكنولوجيًا، ولكنني لازلت أجهل سبب تأخره وعقمه فكريًا إلى هذا الحد!

أي مجتمع علمي لا يقدر التعلم من أخطاء ما سبقه من حضارات؟!

لا يوجد لدي ما أنصحكم به لذا فقد أخبرتكم بكل ما عثرت عليه في تلك المخطوطات علَّكم تتمكنون من مساعدة أنفسكم متفادين ما أخطأنا نحن به، ربما يمكنكم تفادي ما تسببنا نحن به، من يدري ربما يكون المستقبل لكم أنتم فأنتم أبناؤنا وأحفادنا ولكم حق علينا بأن نحميكم، لذا فإني أحثكم على الاهتمام بالعلم وتقديره ولكن رجاء لا تقوموا بتدمير القيم والأخلاق فتلك هي المبادئ التي تجعل منا بشرًا وتفرقنا عن الآليات العقيمة، تلك هي وقود العلم."

\ بداية \

- تم العثور اليوم على إحدي الجثث القديمة في الصحراء الغربية، وذلك بالصدفة البحتة، وقت كانت بعثة الآثار بقيادة الدكتور: مجدي غانم تقوم بالتنقيب عن بعض الآثار الفرعونية، ومعنا الآن مراسلنا محمود عبد الغني:

- محمود، قل لنا ما الجديد الذي عرفته بشأن الجثة؟ هل هي فعلا جثة جندي مصري من شهداء أكتوبر، أم هي مومياء فرعونية كما يتناقل البعض.

انتقلت صورة الكاميرا إلى المراسل الشاب، الذي يقف على مقربة من العمال، الذين يزيحون الرمال برفق وبعناية شديدة، بناء على الأوامر التي يلقيها على مسامعهم قائد البعثة. تنحنح، وأجاب بلهجة جادة، وهو يشير بيده وراءه:

- كما ترين يا هناء، فالعمال يقومون بإزاحة الرمال عن الجثة الآن، ونحن لم نلقِ عليها نظرة دقيقة عن قرب، فلا أحد يعلم شيئًا على وجه الدقة.

- إذًا فلم يقم دكتور مجدي بالتصريح بأي معلومات؟

أومأ برأسه مؤكدًا..

- ليس بعد. وكل ما يقال عن كونها مومياء أو حتى رائد فضاء لا يقترب من الصحة في شيء.

ضحكت المذيعة برصانة لدعابته، وأفادت بأن السادة المشاهدين سيكونون أول من يعلمون بالأمر، ومن ثم انتقلت للخبر التالي.

أما محمود، فقد تحرك من أمام الكاميرا فور انتهاء البث، واتجه من فوره نحو الرجال الكثيرين، الذين تجمعوا في المكان، وتكهرب الجو كله فجأة، فأشار للمصور خلسة أن يبدأ التصوير.

- الجثة تبدو صغيرة الحجم، وكأنها لطفل..

كان أول ما هتف به دكتور مجدي، الذي أكمل، وكأنه وحده تماما.

- لاتنطبق عليها مواصفات المومياء أبدًا..

بدت على وجهه أمارات الضيق، وقد كان يمني نفسه بكشف فرعوني عظيم، تتناقله الألسن.

- ممكن أي معلومة يا دكتور؟

زوى الرجل ما بين حاجبيه، ونظر للمراسل بهجوم، وكأنما وجد من يفرغ فيه إحباطه..

- يا أخي أنتم بتطلعوا منين، احنا لسه لحقنا نشتغل؟!

ضحك محمود بشدة، وكأنما اعتاد تلك اللهجة الهجومية في عمله، ليضيف بابتسامة، لم تنجح عصبية الرجل في إزالتها..

- طيب أي حاجة يا دكتور، قُل لنا حتى الراجل ده كان بيشتغل ايه؟

لم يرد، فعاد ليسأل:

- طب على الأقل ريحني، وقُل لي كان أهلاوي ولا زملكاوي؟

ضحك دكتور مجدي فجأة، وقد نجحت كلمات محمود في فرج أساريره..

- اطمئن يا سيدي.. ده مش موميا ومش فرعوني، وأول ما أعرف معلومات هأبلغك أول واحد.. خلاص ارتحت؟

قالها، والتفت دون أن يسمع جوابه، آمرا العمال باستخلاص الجثة وحدهم، وطلب من مساعده البقاء معهم، ونظر علي الوجه العظمي في تحسر، وكأنما ينعي كنزه الفرعوني، الذي لم يكتب له اكتشافه.

انشغل المساعد عن العمال والجثة بتليفون طويل. فانتهز محمود الفرصة لالتقاط المزيد من الصور عن قرب، وقد بدا الجزء الأعظم من الجثة. ولكن هناك ما أثار حفيظته.. إنها ملابس الجثة، التي تبدو غريبة الشكل إلى حد كبير!

تلفت حوله بقلق، كي يرى إذا ما كان هناك من يشاهده. فوجد المساعد مشغولًا بتليفونه، والعمال مشغولون بتجهيز الأدوات والحبال اللازمة لاستخلاص الجثة ورفعها من الرمال، فاتجه بخطوات سريعة، غير آبهٍ بتحذيرات المصور، وانحنى نحوها يحاول لمسها. وسرعان ما ارتد كمن لدغه عقرب.. فأتاه صوت زميله يسأله في جزع عما حدث. تجاهل إجابته، وهو يجوس بيده

في الجسم المسجى أمامه، وفي قماش ملابسه العجيبة، التي لم ير مثلها. أخذ يتحسسه في منطقة الصدر والبطن، حتى وصل إلى مايشبه البنطال، ومر بيده المرتجفة فوقه، حيث تسمرت يده على قطعة مرتفعة، اعتقدها في بادئ الأمر من عظام الجسد، إلا أنه - وبعد أن شدد الضغط- وجدها شيء آخر. أخذ يقلب ما عثر عليه في يده، محاولًا معرفة ما قد يكون!

- ده شبه الفلاشة الصغيرة!

كاد أن يخبر زميله بأنه يظن الجثة لأحد القتلى الشباب من العصر الحالي، لا من غيره.. ولكن الملابس، وذلك الشيء لا يوحيان بذلك أبدًا!..

قلبه مرة أخرى، ووجد بعض الحروف بلغة منقوشة، لم ير مثلها..

- بتعمل ايه هنا يا أستاذ؟

التفت محمود بسرعة إلى المساعد الغاضب، الذي كان قد أنهى اتصاله. وجد نفسه يخفي ما عثر عليه، وبمرح مفتعل هتف:

- أبدا، كنا بنتفرج عالجثة.

قالها، وسحب المصور، واتجها بعيدا عنه، قبل أن يوبخهما بالمزيد. سأله زميله عن الشيء الذي أخذه، فأنكر أخذه لأي شيء. بدا على زميله عدم الاقتناع، إلا أنه هز كتفيه، كمن لا يهتم. التفت عنه محمود، وهو يقبض على الجسم الغريب بيديه، وعلى وجهه نظرة تصميم باكتشاف المزيد، ممنيًا نفسه بالعثور على كنز أو شيء من هذا القبيل، غير مدركٍ أنه يحمل بين يديه سرًا كبيرًا، يستعصي على عقله الأرضي الصغير فهمه!

كُسوف

- لم أعد أستطيع التحمل.

قالها وأطلق زفرة هائلة، أثارت إشفاق من يحدثه. ونظر إلى عينيه، فأشاح هو بها بعيدًا، ليضيف بحزن:

- لقد حاولت مرارًا، ولكني فشلت.

رفع عينيه إليه مردفًا:

- فشلت في نيل حبها وإستبقائها لي.

أطرق برأسه، يداري حسرته.. وساعدته الظلمة على ترك العنان لدموعه، إلا أن محدثه كان موقنًا بأنه يبكي، لتمكنه من سماع نهنهاته المتألمة. تأثر لرؤية صديقه علي تلك الحالة.. هي ليست أول مرة يراه يبكي، كما أنها ليست أول مرة يعلن فيها استيائه وحزنه من قسوة حبيبته؛ ولكنه لا يملك نفسه من التأثر كلما دار بينهما هذا الحوار!

حاول أن يخفف عنه بشتى الطرق، قائلًا بأنها تحبه، وبأنها من المؤكد أن تكون شاعرة بالندم والكسوف والخجل الآن، لأنها قست - وتقسوا دومًا - عليه! حاول إقناعه بأن علاقتهما ليس بإمكانه إنهاؤها مهما حاول، فهي باقية دائمًا وأبدًا، حتي يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ويختار – جل وعلا - عكس ذلك.

استمع إليه صديقه بصمت، وهو يكمل قائلًا:

- صدقني إنها تحبك، ولا تستطيع البقاء دونك.. فبانهيار علاقتكما ينهار الكون كله بما عليه من بشر.

اكتسب حماسة عند ذكره للبشر، فاعتدل في جلسته قليلًا، ليردف مؤكدًا:

- يا صديقي.. البشر أنفسهم يستمدون قوة حبهم من مجرد نظرهم إليك، ويتخذونك رمزًا للـ..

قاطعه بغضب عنيف:

- هراء.. هم ينظرون إليّ، ويتخذونني رمزًا للوحدة.

وأكمل بحسرة مشيرًا إليها:

- إنها.. إنها تتخفى مني.

***

- سرحان في ايه يا خالد؟!

قالها المدرس بغضب، موجهًا حديثه إلى خالد، الذي التفتت نحوه نظرات زملائه مستطلعة، فانتفض قائلًا:

- مافيش يا أستاذ.

قال المدرس بتحدٍ:

- يعنى انت كنت مركز معايا؟

ودون أن يمهله فرصة للرد، بحزم سأله:

- كيف يتم كسوف الشمس؟

ردد خالد وراءه بخفوت:

- الكسوف؟!

أومأ المدرس مجيبًا، فاتجه خالد نحو الشمس الساطعة، وبنفس الصوت الشارد تنهد، ليجيب:

- كسوف الشمس بحدوثه تحدث الظلمة.. والظلمة تأتي نتاجًا لانفصال المحبون، وتخفي كل منهما عن الآخر.

- بتقول ايه؟!!

قال خالد بثبات:

- يحدث الكسوف، عندما يقع ظل القمر على كوكب الأرض، ويفصل بينه وبين الشمس.

ابتعد عنه المدرس، وهو يقول مهددًا:

- طيب شكلك فلت مني المرة دى بس خد بالك ماتسرحش تاني.

أومأ خالد برأسه، وسرعان ما ابتسم، عندما أعطاه المدرس ظهره، وعاد بعينيه نحو الشمس، وبهمس خافت سأل:

- الكلام اللي سمعته ده صحيح؟!

عذرًا فأنا أملك أطفالًا

" عفوًا أستاذي لكني أملك سؤالًا "

قمت بإلقاء استفساري، والتوتر يعبر عن نفسه في وضوح عبر قسمات وجهي، فالتفت إليّ أستاذي، وقد توقف عن استرساله في الحديث، ونظر إليّ مبتسمًا، مما شجعني على المضي قدمًا فيما انتويه، فأخذت نفسًا عميقًا، وسألته:

- ماذا تعنى بقولك إنه لا يجب عليّ مساعدة المصاب في تلك الحالة، وأنني لن أكون مخطئة لأني مضطرة!

شردتٌ بالرغم مني، وأنا أستعيد كلماته، التي أثارت حيرتي في تلك السن الصغيرة، ودفعتني لدخول ذلك النقاش العقيم معه، حينما قال لنا بالحرف الواحد:

" إذا ما حدث وشاهدت حادثًا، وكان هناك مصابٌ ما ملقىً بالطريق؛ لا تفكر في مساعدته، وإلا سيحدث لك ما لا تحمد عقباه". ومن ثم أخذ يسترسل في ذكر الحادث، الذي قرأ عنه في إحدى الصحف المحلية، والتي تصف قيام سائق الحافلة بالتوقف من أجل مساعدة المصاب، الذي رآه ملقى بعرض الطريق، فقد أخذه إلى المشفى وهمّ بالرحيل، ظنًا منه بانتهاء الأمر.."

وصمت الأستاذ، وأخذ نفسًا عميقًا، ونظر إلينا نظرة عميقةً/ ومن ثمّ مال نحونا، ليضفى على حديثه الأهمية..

" ولكنها أبدًا لم تكن النهاية.. بل كانت بدايتها فحسب. فقد تم استدعاء الرجل للتحقيق، وتمّ اتهامه بأنه هو من تسبب في إصابة الرجل، وحكم عليه بالسجن من أجل هذا..! "

- لم لا تجيبينني؟

قالها أستاذي، وأنا التي أفقت من صمتي على انتفاضة جسدي الصغير، لأسأله بدهشة، مسلطة عينيّ، اللتين بدتا كعيني فرخ النسر- على ملامحه.

- سألتكِ ما إذا كنتِ مستعدة ليحدث لكِ ما حدث للسائق المسكين؟

فغرت فاهي كالحمقاء، وأنا لا أقوى على الرد، فابتسم بثقة مكملًا:

- إذاً فالجواب واضح.

قالها، والتفت عني لما كان يقوم بشرحه و..

- مستحيل.

هتفت بها، وقد اعتراني الذهول.

التفت إليّ أستاذي، وكذلك فعل زملائي بتساؤل..

- من المستحيل أن أرقب من يحتاج مساعدتي، وأهرب خوفًا من السجن أو المسائلة.

نظر إليّ بدهشة حقيقية..

- إذًا فأنتِ تفضلين اتهامكِ بضربه بسيارتكِ، أو حتى بقتله، إذا ما مات؟

وجدت نفسي عاجزة عن الرد، وبدا توتري واضحًا من ارتجافة شفتي بحثًا عن الكلام المناسب، فتقدم باتجاهي..

- اسمعيني عزيزتي.. أعلم أنكِ تظنيني مخطئًا؛ ولكن يجب أن تعرفي أن من يدفعني إلى طلب هذا الأمر، بل والأهم تعليمكِ إياه، هو معرفتي الشديدة بنظام الدولة التي نعيش بها..

قاطعته ببرود شديد، دون الانتباه إلى ما فى ذلك من خطأ:

- وماذا عن الدين؟.. هل يأمرنا ديننا بترك المصابين والمحتاجين والهرب من مساعدتهم خوفًا من نظام الحكم؟ كيف تطلب منّي ترك طفل ملقىً على الطريق والهرب بعيدًا، والاكتفاء بإشاحة وجهي بعيدًا خوفًا من الإدانة؟

أخذت نفسًا عميقًا لأكمل:

- أعتقد أن إنسانيتي تمنعني من ذلك.

- ديننا يأمرنا بالحفاظ على أنفسنا، وعدم الإلقاء بها إلى التهلكة كذلك، وأنتِ...

قاطعته للمرة الثانية بغضب:

- وكيف ذلك؟.. عبر إنقاذي لنفس؟! وماذا أنا بفاعلة عندما أهرب تاركة ورائي بريئًا بحاجتي؟

تماديت، وكأنما تلبستني روح العناد والغضب.. وعند تلك النقطة..

- أخبرني سيدي.. هل ستترك أنت الطفل يلقى مصرعه، وتفرّ خوفًا من مساءلة الناس؟!

- أنا لا أدرى ماذا سأفعل حينها، ولكن ما إذا حصل وتركته، فسأكون مضطرًا، ولن أفعل ذلك بملء إرادتي!

أشار إلّى بسبابته، محذرًا إياي من مقاطعته، فأطبقت فمي مجبرة، أستمع إليه في ضيق.

- أنا أب أنا الآخر.. ماذا سيحدث لأطفالي، ومن سيصرف عليهم ويهتم لأمرهم إذا ما مت أنا، أو سجنت ظلمًا؟.. اسمعيني.. أنا أؤمن بأني أملك عذرًا مقبولًا، ولن أتردّد في استخدامه من أجل حمايتي وحماية أسرتي وأطفالي.

هممت بمقاطعته، إلاّ أنه أشار إليّ للمرة الأخيرة..

- أنتِ لن تفهميني الآن، لأنك لستِ أمًّا، ولكن عندما تكبرين..

نظر إليّ نظرة عميقة..

- عندما تكبرين ستفهمين.. من أجل أطفالك.

***

- حسنًا عزيزي لن أتأخر.. سأكون عندك في الحال، انتظرني ولا..

قلتها وأنا أنعطف بالسيارة في طريقي إلى بيتي، الذي تأخرت عنه بسبب ازدحام الطريق، فاضطررت إلى الإسراع، ولم أتمكن من رؤية الجسد الذي صدمته بسيارتي، التي صدر عنها صريرٌ عالٍ وأنا أحاول إيقافها. أخذت ألهث بعنف، وأنا أرتجف في مكاني، لا أقوى على الحركة. وبعد هدوئي نسبيًّا، فتحت باب سيارتي بأصابع مرتجفة، واتّجهت إلى الجسد الملقى على الأرض، والذي بدا ساكنًا، كأنّما فارقته الحياة.

وجدت نفسي أتلفت حولي، بحثًا عن أي أحد قد رآني، إلاّ أن الطريق كان خاليًا من المارة في ذلك التوقيت. وحمدت الله، وكدت

أنصرف، إلاّ أنني لمحت الجسد الملقى على الأرض ينتفض انتفاضة بسيطة، وكأنه مازال حيًا.. فاتجهت إليه، وقد عاودني الارتجاف، وأخذت أتلفت حولي، وأنا مازلت أتقدم نحوه بحذر، وسألته بصوت مرتفع نسبيًا:

- أأنت بخير؟

لم أسمع جوابًا في البداية، فاقتربت أكثر من الجسد الملقى.. وفجأة ارتددت إلى الخلف، غير مصدقةً ما أرى!

"لكن ما إذا حصل وتركته، فسأكون مضطرًا، ولن أفعل ذلك بملء إرادتي".

"ماذا سيحدث لأطفالي، ومن سيصرف عليهم ويهتم لأمرهم إذا ما مت أنا، أو سجنت ظلمًا "

هززت رأسي بعنف، لأنتزع الذكريات التي عادت إلى رأسي. وأعدت سؤالي، وأنا أنظر إلى الوجه الذي - للغرابة - بدا مألوفًا!

- سيدي.. هل أنت بخير؟

فتح عينيه في هذه اللحظة..

"أنتِ لن تفهميني الآن، لأنك لستِ أمًّا، ولكن عندما تكبرين.." "

عادت الكلمات بدوي أقوى من سابقتها، وأمسكت رأسي بألم، وأنا لا أدرى ماذا أفعل..

" عندما تكبرين سوف تفهمين.. من أجل أطفالك "

" من أجل أطفالك "

توقفت، والتفت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع..

- لماذا؟!

نظر إليّ غير مستوعبٍ للكلمة، أو ربما هو لم يسمعها.

أعدت سؤالي بحدة، وبدا الرجل ضعيفًا، كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة، إلاّ أنني لم أتوقف، ولم تأخذني به شفاعة، وأخذت أقترب منه، وأنا أعيد كلماته على مسامعه بصوت محتدٍ..

- ماذا سيحدث لأطفالي، ومن سيصرف عليهم، ويهتم لأمرهم إذا ما مت أنا، أو سجنت ظلمًا.. هاه؟.. أنتِ لن تفهميني الآن، أنا أب أنا الآخر.. ماذا سيحدث لأطفالي، ومن سيصرف عليهم، ويهتم لأمرهم، إذا ما مت أنا أو سجنت ظلمًا؟؟ "

توقفت عند رأسه، وأنا أنظر إليه بحقدٍ..

- هل أنت بحاجة لي الآن؟

أطلق آهة ضعيفة، كان من شأنها أن تذيب أعتى القلوب، إلاّ أن قلبي كان قد استحال حجرًا وأنا أهتف:

- هذه كلماتك أتذكرها؟ كلماتك التي علّمتني إياها وأنا بعد طفلة. حسنًا أستاذي.. لقد كبرت الآن، وسأجعلك فخورًا بي.

أنا أم أنا الأخرى.. ماذا سيحدث لأطفالي، ومن سيصرف عليهم ويهتم لأمرهم إذا ما متّ أنا، أو سجنت ظلمًا؟؟

لقد كنت محقًا أستاذي.. فأنا لم أكن أفهمك سابقًا، إلاّ أنني أفهمك جيداً الآن.

نظر إلّي بوهن، فأكملت غير عابئة بنظراته المستنجدة، وهمهاته التي لا أفهم منها شيئًا، وابتسمت ابتسامة مريرة، وقد بدأت دموعي في الانهمار.. جثوت نحوه..

- أنا الآن أفهم تمامًا ما كنت تحاول تعليمي إياه، وقت كنت ساذجة لم أفهم الحياة.. فأنا أصبحت أمّا الآن، ولديّ عائلة وأطفالًا وزوجًا يحتاجونني. هل أنت فخور بي الآن سيدي؟

قلتها، وازدادت دموعي انهمارًا، فأكملت من وسط عبراتي التي أحرقتني:

- يجب أن تفخر بي الآن، لأنك جعلت منى قاتلة.. ألا يدعو هذا إلى الفخر؟

لم أجد منه جوابًا، وقد خبت عيناه، إلاّ أنها لم تغب عنها نظرة الضعف، فصرخت فيه بجنون:

- أجبني.. ألا أستحق أن تكون فخورًا بي؟!

وقفت باعتداد، ومسحت عبراتي، وقلت بصوت قد خلا من المشاعر:

- والآن عذرًا أستاذي.. لا أستطيع مساعدتك، فإن لي أطفالًا.

أخذت أتراجع لا إراديًا إلى الخلف، وأتجه نحو سيارتي، غير منتظرة إجابة من الجسد الملقى أمامي، وغير عابئة بنظرة الضعف التي في عينيه، والتي تمتلئ رجاءً. أدرت ظهري، ووضعت يدي على أذني، لأمنع عنها همهاته المتوسلة.

***

" ومن أخبارنا الجديدة، ورد إلينا نبأ حادث بالطريق الفرعي المؤدي إلى منطقة (....) حيث وُجدت جثة لرجل يناهز الخمسين من عمره، مات بحادث سيارة، وقد فارق الحياة بسبب نزيف حاد، وذلك لعدم نقله إلى المشفى بالوقت المناسب. ومن المعلومات التي

وردت إلينا، أن المتوفي عامل بسيط بمحطة القطار، واسمه الثلاثي (...)

- توقف عن مشاهدة هذا الهراء يا عادل، وتعال لتكمل واجباتك.

قلتها، وأنا أقوم بإغلاق التلفاز بالكامل، إلاّ أن ابني عقد حاجبيه وقال بلهجة (لا أذكر أين سمعتها قبلًا)

- ولكن يا أمي إنه رجل مسكين، قتله سائق ما، ولم يكلف نفسه عناء إنقاذه، أو حتى طلب المساعدة له.

اقتربت منه بحنان، ونظرت إليه قائلة بألم:

- أنت لا تفهم الآن، لأنك مازلت صغيرًا.

نظر إليّ، متسائلًا بعينين ملأتهما البراءة، فأكملت وأنا أضمه إلى صدري:

- سأخبرك بقصة الرجل الذي حكم عليه بالإعدام شنقًا، لمساعدة من وجده ملقى في الطريق.. وقصة آخر ساعد صديقه ووقف بجانبه في شدته، فما كان منه إلا أن خانه وطعنه بظهره.. وأخرى لواحدة حاولت...

أخذت ألقي تلك القصص على مسامع ابني، كي أحميه من شرور الناس. فهو طفل، ولابد من أن يقوم أحد ما بتعليمه الصواب، حتى لا يكبر ويواجه صعاب الحياة بقلب وفكر لا يصلحان لها.

والآن.. هلا أزحتم تلك النظرة المثيرة للأعصاب عن وجوهكم. فماذا أنتم فاعلون لو كنتم مكاني! بالله عليكم اعذروني، فأنا لدي أطفالٌ.

أمواج

(1)

- أبي البحر جميل جدًا اليوم.

أطلقت الفتاة ذات الثماني سنوات ضحكة طفولية مرحة، وهي تصفق بكلتي يديها.

- أنا سعيدة جداً أبي.

ابتسم أبوها بحنان..

- وأنا سعيد أيضًا لأنكِ سعيدة لؤلؤة.

- لنسبح قليلًا..

- حسنًا صغيرتي، لننتظر أمكِ حتى نأكل.

قاطعته الصغيرة برجاء:

- أرجوك يا أبي، أريد نزول البحر الآن.

أردفت، حينما رأت التردد في عيون أبيها:

- أعدك ألاّ أذهب بعيدًا، يمكنك أيضًا متابعتي من الشاطئ.. أرجوك أبي..

ضحك أبوها بحنان، وطبع على وجنتها الناعمة قبلة حانية.

- حسنًا لؤلؤتي الغالية، لا تبتعدي كثيرًا.

- حاضر.

قالتها، وركضت تجاه الشاطئ، تتابعها عينا أبيها. تعالت ضحكات الصغيرة وهي تندفع نحو مياه البحر، وتلقي بنفسها فيها، في حين تتلقاها الأخرى وكأنما تحتضنها. خلا الشاطئ إلا من بعض الأفراد، وكانت المياه صافية، والرياح هادئة.

كانت الصغيرة تستمتع بوقتها لأبعد الحدود، وتتعالى ضحكاتها بين الحين والآخر، مما يدفع أبوها لرفع رأسه عمّا يقرأه، ليبتسم لها مشجعًا.

- إنها تشبهك.

تنهدّ الأب تنهيدة كبيرة، وقال بصوت خافت:

- وهذا ما يثير قلقي.

اقتربت منه، ونظرت إلى عينيه الزرقاوين..

- عزيزي.. لا داعي للقلق، فهي كما ترى مستمتعة بوقتها، ولا يشغلها شيء.

قال بقلق، وهو يراقبها تداعب الماء بسعادة جمة:

- أجل، ولكنها لا تزال في الثامنة، وأنا لا أنسى ما حدث قبلًا.

- ولكنه لم يتكرر مذّاك اليوم.

أطلقت ضحكة صافية، كمن تذكرت شيئًا..

- لقد ضبطها بالأمس تداعب قلادتها، وتتحدث إليها، وعندما سألتها عما تفعل، أجابتني بأنها تناديك حتى تأتى سريعًا.

ابتسم بحنان، وقال بخفوت:

- أجل.. لقد أعطيتها إياها، وأخبرتها بأنها إذا ما احتاجتني، فلتخبر الصدفة الموجودة بالقلادة.

تنهد، ليكمل بشرود، دون أن يبعد عينيه عن الموج الهادئ:

- المهم أن أكون موجودًا حينها.

***

(2)

كانت الشمس جميلة جدًا ذلك اليوم، تنشر آشعتها الدافئة، لتغطي الشاطئ، وتضفي حيوية ومرحًا على الطفلة الصغيرة، التي قاربت على إتمام عامها الثاني، وتتعلق في عنق أبيها بيد، وبالأخرى تخبط بمرح في المياة حولها.

- أنتِ تحبين البحر مثل بابا صغيرتي؟

جاوبته ضحكاتها الطفولية البريئة، وأخذت تداعب المياه بجرأة أكثر، وانشغل أبوها معها، ولم يرَ الموجة العالية، التي كانت تقترب منهما بقوة.

" سليم.. احترسا، رباه ابنتي "

انطلقت الصرخة، ليلتفت الأب بعدها بسرعة، ليقي ابنته شدة الموجة، ويتلقاها هو.

هدأ الأمر كله فجأة، مثلما بدأ.. وأخذت الأم تقترب من ابنتها، التي أصيبت بالفزع، وأخذت تنادي اسم أبيها بحروفها المتعثرة، إلا أنه كان قد اختفى، وترك البحر وراءه صافيًا!

- سليم!.. أين أنت؟ النجدة!

ازدادت صرخات الطفلة، وهي تشير بيدها إلى الموضع الذي اختفى فيه أبوها منذ لحظات. فأخذت أمها تقول بهستيرية شديدة، وهى تنظر إلى نفس النقطة التي تشير إليها ابنتها:

- لا عليكِ صغيرتي.. أبوكِ بخير، وسيأتي الآن.

لم تجد ما تكمل به كلامها، فتركت لدموعها العنان، وشددّت من الضغط على ابنتها.

- أنا هنا صغيرتي.. لا تقلقي.. بابا هنا.

ارتمت سحر بين ذراعي زوجها، وأخذت تبكى بعنف، في حين سكنت صرخات الطفلة، واستكانت بين ذراعي والديها.

- لنخرج الآن.

- أنت بخير؟ لقد أفزعتني كثيرًا.. من أين..

التفت إليها، فصمتت تمامًا، حينما رأت عينيه الزرقاوتين، وقد قرأت فيهما الخوف، وبدا وأنهما قد تحولتا إلى بحر متلاطم الأمواج.

- الآن يا سحر، فالموج لم يعد آمنًا.

***

- أبي.. ألن تأتي معي؟

قالتها الفتاة الصغيرة، التي أصبحت في الثانية عشر من عمرها، وهي تنظر بغضب إلى أبيها، المشغول بقراءة كتاب ما.

- صغيرتي.. أنا أقرأ الآن.

قالها أبوها، دون أن يرفع عينيه عمّا يقرأه، فضربت رمال الشاطئ بقدميها.

- ولكنني أريد النزول إلى البحر.. أريد السباحة.

ابتسمت أمها، التي كانت تراقب الموقف، ولكزت زوجها في مرفقه، فانتبه إلى ابنته الغاضبة، وأبعد الكتاب عن يده.

- حسنًا.. ولم لا تنزلين أنتِ؟

أشاحت الفتاة بوجهها بعيدًا..

- أخاف النزول وحدي.

بدا التوتر على وجه أمها، في حين ربّت الأب علي يدها لتهدئتها، ووقف ليواجه ابنته..

- أتخاف صغيرتي وأنا معها؟

أجابته الفتاة، وقد تقوّس فمها للأسفل، وكأنما تهم بالبكاء..

- ولكنك لست معي، فأنت..

قاطعها بابتسامة، وهو يمسك القلادة التي تلبسها في عنقها..

- بلى.. أنا هنا.

- حسنًا.. سأنادى عليك، ولكن لا تتأخر.

- أبدًا

وما أن التفتت ابنته عنه، حتى تنهد بقوة، عاقدًا حاجبيه، وظلّ يراقبها بخوف، حتى اقتربت زوجته منه بهدوء، وأمسكت يده بحنان، فالتفت إليها، وقال بحزن:

- إنها مازالت تتذكر.

– لا أعتقد.. لقد كانت صغيرة وقتها.

- إنها لا تفهم ما حدث بالضبط؛ ولكنها تذكر كل ما حدث بالتفصيل. ومايقلقنى أكثر، أنه سيأتي اليوم الذي تفهم فيه.

التفت إلى زوجته، وقال بحزن:

- وأخاف ألاّ أكون موجودًا حينها لحمايتكما.

قالت زوجته بحنان، وهي تقترب لتلقي نفسها بين ذراعيه، ليحتضنها بحب:

- أطال الله عمرك حبيبي.. أرجوك، لا تقل هذا.

ابتسم بحنان، وربّت عليها، دون أن يقول المزيد. واستكانت هي بين ذراعيه؛ ولكنه سرعان ما أبعدها عنه، وهو ينظر إلى البحر بقلق..

- ماذا هناك؟

- أين لؤلؤة؟

***

فجأة.. ودون أي مقدمات، ازدادت شدة الموج، وشعرت لؤلؤة، التي كانت تلعب بمرح، بالخوف الشديد. وازداد رعبها، عندما رأت شيئًا في المياه.. شيئًا لا تدرى كنهه، ولكنه يقترب منها. ليست تدرى لمَ توقفت! لمَ لم تنادى أباها! أحست بأنها ليست المرة الأولى التي تواجه فيها هذا الموقف، وليست أول مره ترى فيها هذا الشيء، إلاّ أنها ليست تذكر أين ولا متى رأته!

أفاقت على صوت أبيها، الذي يناديها من بعيد. أخذت تسبح وتنادي أباها، الذي وجدته أمامها في لحظة واحدة.

- لا تخافي لؤلؤتي، أنا هنا الآن.

ارتمت بين ذراعيه، عاجزة عن النطق.. فقط أخذت تشير وراءها.

- لا تخافي!

تشبثت به بقوة..

- لؤلؤتي الغالية، ألم أخبركِ بأن تناديني، وسآتى إليكِ؟

أكمل دون أن تجيبه..

- وها قد أتيت عزيزتي، ولن..

بتر عبارته، حينما شعر بشئ يجذبه بعيدًا، فدفع ابنته عنه وهو يصرخ:

- هيا اخرجي بسرعة.

قطعت جملته الموجةالعالية، التي أتت لتغرقه وابنته، ليختفيا تحت المياه. إلا أنهما عادا للظهور، وقد بدأت لؤلؤة في الصراخ.

- ابتعدي الآن.

- لن أتركك يا أبى.

قال بألم، وهو يصارع الشيء الذي يجذبه لأسفل، وقد بدأ في الظهور، وقد كان عبارة عن أذرع طويلة..

- اخرجي يا لؤلؤة، اخرجي الآن.

قالت من وسط عبراتها، وهي تنظر إلى تلك الأذرع برعب، وقد بدأت في الاقتراب منها:

- كلا يا أبي لن أتركك. النجدة! أبي يغرق.. النجدة!

- سامحيني صغيرتي.. وتذكري أني معكِ دائمًا.

قالها أبوها، واختفى تمامًا، جاذبًا معه ذلك الشيء ذي الأذرع، تاركًا وراءه ابنة ملتاعة، لا تكف عن الصراخ.

- أبي.. أين أنت؟

- عد إليّ يا أبي!

- أبي!

استيقظت لؤلؤة وهي تتصبب عرقًا، وكأنما خرجت لتوّها من البحر، لتجد نفسها تصرخ باسم أبيها، وتحرك يدها لتتحسس عنقها بحثًا عن القلادة. وتذكرت أنها قد فقدتها في ذلك الحادث المشئوم، الذي ما زالت تراه في أحلامها إلى الآن. انفجرت ببكاء حاد، وأخذت تتحسس مكان القلادة بلا جدوى.

أتت أمها حينما سمعت صراخها، واحتوتها بين ذراعيها بقوة..

- إنه نفس الحلم يا أمي.. أبي يغرق، ولا أستطيع مساعدته. أريد أبي يا أمي، أريده.

قالتها، وتابعت بكاءها العنيف، فاحتضنتها أمها، تاركة لدموعها العنان، غير قادرة على النطق بحرف واحد. فما حدث قبل ثلاثة عشر عامًا، يعيد نفسه -وبصفة منتظمة - في عقل ابنتها، التي تبكى الآن.

***

(3)

أنهت الأم صلاتها، وأخذت تتضرّع وتدعو الله كثيرًا، كي يحمى ابنتها، ويذهب عنها الهم والحزن. أخذت تدعو، وشردت بذاكرتها

وأفكارها إلى ابنتها، التي تحولت لأخرى بعد ذلك الحادث المؤلم، الذي تعرّضت له وقت كانت أصغر سنا، وجعلها تكره البحر والمياه وكل ما لونه أزرق!

هي لم تعد تطالب بالذهاب إلى البحر إلا نادرًا. وعند الذهاب، كانت تكتفي فقط بالجلوس على الشاطئ، رافضة أن تلامس قدمها المياه. ولعلّ هذا هو الشيء الإيجابي في الموضوع، حيث إنه أبعدها عن البحر، وفي ذلك حماية لها بالتأكيد. يكفى فقدانها لزوجها وحبيبها.

- أمي.. أريد الذهاب إلى هناك.

انتفضت أمها على صوتها، وأخفت دموعها سريعًا.

- أين حبيبتي؟!
- إلى البحر، حيث كان أبي يصطحبنا.

ابتسمت أمها بحنان..

- ولكن التوقيت مازال شتاءً، سـ..

قاطعتها ابنتها، وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

- ولكننا كنا نذهب دومًا فى الشتاء..

صمتت قليلًا، كي لا تسمح لدموعها بالانهمار، في حين ارتعشت شفتاها بألم، واستطردت برجاء:

- أرجوكِ أمي.

- حسنًا لؤلؤتي.. سنذهب غدًا صباحًا بمشيئة الله.

- شكرًا أمي.

قالتها، وتركت أمها تواصل دعاءها وتضرّعها، وشرودها مع ذكريات سرها العجيب.. جدًا!

***

- الجو صحو ومشرق اليوم على غير العادة.

قالتها سحر بحنان، وهي تنظر إلى ابنتها الجالسة على الشاطئ، تنظر بشرود إلى البحر. ابنتها التي كبرت، لتملك جمالًا أخاذًا، بداية بشعرها الطويل، والذي يجمع مابين اللونين البني والذهبي في تناسق بديع، وينسدل ناعمًا على ظهرها، محيطًا بوجهٍ ملائكي، تزينه عينان في لون البحر، أو هما البحر نفسه. يتوسط هذا الوجه أنف مستدق وطويل، ينتهي عند شفتين مكتنزتين، تخفيان خلفهما صفين من اللآلئ، التي تدفعك إلى أن تغلق عينيك إذا ما قررّت هي أن تضحك في وجهك. لقد كانت في مجملها صورة مجسمة لآية من آيات الخالق فى الجمال.

كانت تراقب أمواج البحر، التي لا تكف عن الحركة. كانت حركتها بديعة، ولا يمكن أن تملها أبدًا.. كان الموج يرتفع بعيدًا، وكأنه سيلامس السماء، ولكنه سريعًا ما يشعر باشتياقه إلى الأرض، فيعود سريعًا لاحتضان رملها. هذه الامواج ترتبط بها بشكل أو بآخر؛ فهي الأخرى تتقاذفها ذكرياتها، وتعلو بها إلى آخر الدنيا، حينما تتذكر ضحكاتها مع أبيها، وتعود لتلقي بها إلى أسفل سافلين، حين تتذكر افتراقهما. لم تعد تدري إذا ما كان عليها أن تحب الأمواج أم تكرهها!

- تملكين عيون أبيكِ.

أفاقت من خيالاتها، ومالت لتطبع على خد أمها قبلة حانية. ووجدتها فرصة لا تعوض، فسألتها بسرعة:

- أمي، أخبريني كيف مات أبى؟

هزت أمها كتفيها بتعجب، وقد التفتت عنها للكتاب الذي كان بيدها، فأكملت لؤلؤة في إلحاح:

- أعني أنه غرق.. أبي غرق، أليس كذلك؟

أومأت أمها برأسها، وهي تتحاشى النظر إلى عينيها.. عينيها التي تذكرها بعيني زوجها.. عينيها التي لا تستطيع الكذب عليها، مهما حاولت.

- أتساءل عن الأشياء الغريبة التي أراها، ولا أدري ماهي.. أتساءل أيضًا عن الذكريات المتداخلة، فأنا أشعر بأنني مررت بذلك الحادث من قبل!

أجابتها أمها، وهي تتظاهر بمطالعة الكتاب:

- لقد كنتِ طفلة وقتها، ومن الطبيعى أن يختلق عقلكِ أشياءً ليست حقيقية.

قاطعتها باعتراض:

- أمي.. أنا لم أكن طفلة، لقد كنت فى الثانية عشرة من عمري..

بترت عبارتها فجأة، لتعقد حاجبيها، مثلما كان يفعل أبوها، دافعة أمها إلى ترك ما تتظاهر بمتابعته..

- ماذا هناك؟

- إلا إذا كنت مررت بذلك الحادث من قبل، وأنا في سن أصغر.

" إنها لا تفهم ما حدث، ولكنها تذكره، وسيأتي اليوم الذي تفهم فيه و.. "

- أماه لمَ لا تجيبينني؟

أفاقت سحر من شرودها على صوت ابنتها، وسؤالها الملّح.

- بماذا أجيبكِ؟ وما كل تلك الأسئلة؟ هل أتينا هنا لنستمتع بالبحر، أم أتينا لنجيب تساؤلاتكِ الغريبة تلك؟!

قالتها، ورسمت على شفتيها ابتسامة هادئة، وسرعان ما عادت إلى الكتاب، الذي كان آخر ما تراه أمامها هو صفحاته!

***

تراقصت آشعة الشمس الدافئة على صفحة المياه، وأضفت جوًا رائعًا من السعادة على المكان كله، وخصوصًا على الفتاة التي تلعب بمرح، وترش أباها بالمياه وتجري بعيدًا عنه، لتعاود الكرة من جديد. تعالت ضحكاتها المرحة وهي تركض، حتى أمسكها أبوها، وأخذ يرشها بالمياه، حتى بلّلها تمامًا.

- يكفي يا أبى.

قالتها من وسط ضحكاتها، ولكن هذا لم يوقف أباها، الذي استمر في مداعبتها، حتى أمسكته بقوة من عنقه لتتعلق به.

- أوحشتنى كثيرًا يا أبى.

توقف أبوها عند هذه النقطة، ليضمّها إليه بحنان قائلًا:

" أنتِ أيضًا صغيرتي أوحشتنى كثيرًا."

تنهدّ بقوة:

" كثيرًا جدًا "

قالت لؤلؤة بخبث، دون أن تنفلت من حضنه:

- ولكنني لم أعد صغيرة أبي.

" بلي ولكنكِ ستظلين - مهما كبرتِ- لؤلؤتي الصغيرة "

- إذًا لمَ تركتني أبي؟

أبعدها عنه بهدوء، ونظر إلى عينيها، ودار بينهما حديث تبادلوه دونما كلام.

"فعلتها لأحميكِ صغيرتي، ولم يكن أمامي حل آخر".

- من الموجة العالية!

" لن تفهمي الآن. كل ما عليكِ معرفته هو أنني لم ولن أتركِ أبدًا. ألست تحتفظين بالقلادة، التي أعطيتكِ إياها؟"

انهارت الفتاه عند تلك النقطة، ودفنت رأسها فى صدر أبيها، كي يقيها دموعها، التي تلهب خديها.

- كلا يا أبى، لقد فقدتها يوم.. يوم..

انهمرت دموعها أكثر..

- يوم موتك!

ملّس أبوها على شعرها الناعم، وهمس:

" لا عليكِ عزيزتي.. أنا أحتفظ بها، لا تخافي.. هل تريدين القلادة؟"

قالت، ودموعها تبلل وجهها، الذي مازالت تخبئه في صدر أبيها:

- أريدك أنت أبي.

ترك لدموعه العنان هو الآخر، وشددّ من ضمها إليه..

" آه يا لؤلؤتي الغالية، لو تعلمين كم أشتاق إليكِ.. سامحيني يا صغيرتي."

قالت بألم:

- سامحني أنت أبي، فأنا من دفعتك لنزول المياه.

ابتسم من بين دموعه، وقال شيئا ما، إلا إنها لم تتمكن من سماعه، فسألته أن يعيده علي مسامعها. ومرة أخرى لم تتمكن من سماعه. في المقابل، وصلت إليها صرخات تستغيث، وصورة أبيها تبتعد عنها.

" النجدة!.. ساعديني لؤلؤة.. ساعديني صغيرتي."

- النجدة!

انتفضت لؤلؤة على صوت الاستغاثة، وكذلك فعلت أمها، ووقفتا لتجدا شابًا يصارع الأمواج، ويختفي ويعود ليظهر مرة أخرى ليلقي باستغاثته. لم يكن هناك أحد على الشاطئ سواهما.. نقلت بصرها بين أمها وبين الشاب بفزع..

- اذهبي إليه!

قالتها أمها، وهي تدفع ابنتها إلى البحر؛ في حين قالت لؤلؤة بانكسار:

- لا أستطيع يا أمي.. لا أستطيع. لابد وأن نبحث عن مساعدة.

- بلي تستطيعين.. تحركي!

لم يكن هناك وقت للتفكير، فما كان منها إلا أن ركضت باتجاه الشاطئ، وهي تتابع بعينيها الشاب، الذي يصارع الأمواج بيأس.

- لا عليك.. أنت بخير.. حاول أن تتماسك، وثق بأني لن أتركك. فقط لا..

بترت عبارتها فجأة، عندما رفع الشاب عينيه إليها..

- أبي!

قالتها بذهول، وهي تلهث جراء المجهود الذي قامت به. اقتربت تتفرس في ملامحه أكثر، فبدا لها غريبًا جدا، بهيئته التي توحي بأن كل شيء فيه من البحر!

- شكرًا لكِ.

ابتسم ابتسامة واسعة.

- فأنتِ لم تتركيني للموت غرقًا.

استمرت في التحديق إلى عينيه..

- إنها تشبه عينيه إلى حد كبير، أليس كذلك؟

سبح تجاهها، لينظر إلى عينيها مباشرة.

" عينيكِ أيضًا تشبهه كثيرًا "

- من أنت؟!

لم تدرِ كيف نطقتها ولا متى. لقد بدا وكأنما لم تخرج من بين شفاهها، وإنما من عقلها مباشرة، لتستقر في ذهنه. ليبتسم:

- يمكنكِ مناداتي موج.

أحست بمشاعر متضاربة، ما بين دهشة واستنكار وارتياح و.. ولهفة.. وفي عقلها كان يدور صراع أكبر.. صراع بين سبب ارتياحها لهذا الشاب، وبين خوفها المبهم الذي لا تستطيع تفسيره.

ازداد خوفها بازدياد شدة الموج، ووجدت نفسها تنظر تلقائيًا إلى الشاب، وإلى المياه من حوله لتجدها صافية.

- لا تقلقي.. أنا وحدي.

قالها هذه المرة بصوت مسموع، وكأنما يقرأ أفكارها، وبابتسامة حانية، ذكرتها بابتسامة أبيها كثيرًا، فوجدت نفسها تهتف:

- ماذا تعني؟ من أنت؟ أنت تستطيع السباحة، إذًا لمَ كنت تصرخ؟

أخذت تلهث بعنف، فاقترب أكثر، ورفعها إليه ببساطة، كأنما يستند إلى أرض صلبة، كي تلتقط أنفاسها اللاهثة، فشهقت بعنف، وحاولت التملص.

- اهدئي.. لن أقوم بإيذائكِ أبدًا.

- من.. من أين أتيت؟

- مِن هناك.

قالها وهو يشير بيده إلى ما وراء ظهره. ورفع عينيه إليها، ليردف بابتسامة:

- أبوكِ أرسلني.

- أنت كاذب. أبي مات.

أطرق بحزن..

- أعلم ذلك.. لقد كنت ممن شرفوا بحمل جسمانه و..
- كاذب

لم يرد، فأكملت بثورة، وهي تنتزع نفسها من بين يديه.

- أبي مات غرقًا، يوم كنت أنا معه، ولم نعثر على جثته لدفنها، ولم..

- من الصعب على أبوكِ أن يموت غرقًا، وهو شخص اعتاد على المياه من قبل أن يولد.

- ماذا تعني بهذا الهراء؟ أنا كنت معه، ورأيت بنفسي..

بترت عبارتها، لترتطم برأسها الكثير من الذكريات المتداخلة، التي لا تفهم منها شيئًا.. الأمواج، والأذرع الطويلة السوداء، وحلمها الأخير!

هزت رأسها بعنف، لتوقف سيل الذكريات، وابتعدت عنه تسبح عائدة.

- لمَ تهربين؟

- لا تقاومي ذكرياتك، بل حاولي فهمها.

قالها وهو يمسك ذراعها، كي يمنعها من الذهاب.. في حين استمرت هي في دفعه بعيدًا. أمسك رأسها بين راحتيه، ونظر في عينيها بثبات.

" أعلم جيدًا أنكِ لا تعلمين، ولكنه أرسلني اليوم كي أخبركِ."

" من تعنى؟ من أرسلك؟؟ "

أجابها، دون أن يفلتها:

" أبوكِ "

" ولمَ أرسلك؟!!

" لأخبركِ بأنكِ منّا."

" ماذا تعني؟"

" من البحر."

" لمَ تستمر في تكرار تلك الجملة الغبية؟ ماذا تعني بأني من البحر؟"

" لست وحدكِ، فأنا أيضًا وأبوكِ وباقي أسرتنا من البحر. نحن مخلوقات الله، ولسنا وحوشا أو مخلوقات أسطورية. مخلوقات حباها الله بصفات تمكنها من سكن البحر.. كان أجدادنا قديمًا ما ينتقلون من البر إلى البحر دون شروط. ودون الحاجة إلى التخفي في ذلك عن إخواننا الذين يسكنون البر. ولكن تقول مخطوطاتنا التاريخية إنه بمرور الوقت قد بدأت المتاعب، وبدأ الصراع، فاختار أجدادنا سكنى البحر وحده، واختار بعضهم سكني البر، وهناك من اختار الاثنين، ولكنه كان معرضًا لخطر كسر القوانين، فمن كان يتم اكتشافه، كان يُحكم عليه بالسجن في عالمنا نحن.. وهذا ما حدث في حالة أبيكِ".

- هل.. هل كنت تحادثني عبر عقلك؟

ابتسم بصفاء..

- أجل، هي حاسة وهبها الله لنا.

- كنت واثقة بأني وأبي كنا نفهم بعضنا من إيماءة واحدة.

***

بخطوات بطيئة، اتجهت نحو أمها، التي كانت تنتظرها بلهفة على الشاطئ. كيف نست أمها، وظلت مع هذا الغريب، الذي أتى به الموج. في تلك اللحظة، أحست بكفها، الذي لايزال ساكنًا في يده، التي تحتضنها بحنو، وكأنه هو من أنقذها. سحبت كفها بخجل وهي تبتسم.

- من الآن فصاعدا عليك أن تكف عن قراءة أفكاري.
- ههه سأحاول.
- أمي، هذا..

بترت عبارتها، وهي تنقل بصرها بوجل بين موج وبين أمها، التي بادرتها:

- أعلم كل شيء.

وقبل أن تسألها لؤلؤة عما تعنيه، ابتسم موج، في حين أردفت أمها وهي تضمها لها بحب:

- مررت بالحلم ذاته حبيبتي.
- أمي.. هناك الكثير لازلت عاجزة عن فهمه، و..
- ستفهمين يا حبيبتي.

قالها موج بحب، فوجلت هي بخجل، في حين ابتسمت أمها بحنان، وهي تراقب موج يلبس ابنتها قلادتها، التي رُدت إليها، وبها اكتملت سعادتها الناقصة.

انتفاضة أخيرة

ما دفعني إلى الكتابة اليوم هو موقف مرّ بي، أو اصطدمت أنا به، لست أدري في حقيقة الأمر!.. المهم أنه قد حدث، والأهم أنني أحدثكم به الآن. ولكني - في الواقع- أجد الأمر برمته صعبًا جدا.

تبًا!

لست أدري إذا ما كان الأمر مردوده لطول الفترة، التي انقضت دون أن أختار الإمساك بقلم، أخط عبره مكنونات نفسي.. أم لعلها طرافة الموقف نفسه، والذي لا أتمالك ضحكاتي أمام سخافته.
لعل السبب يتعلق بكوني كنت أعيش دون أن أسأل عن شيء، فقط أدع الأمور- وهذا ما ثبت مدى سخفه لاحقًا - تتجه نحو مساراتها الطبيعية، التي خلقت من أجلها. فدائمًا ما كنت أثق بأن ما حدث كان الشيء الوحيد الذي لابد وأن يحدث. حتى الشك لم أكن لأسمح له بزلزلة وهز مبدئي ذاك، أوتدرون أن سبب انحطاط المجتمع وتدهوره يعتمد في جانب كبير منه على البشر، الذين يتبعون منهجي ذاته، وأنا الذي ظننت نفسي مميزًا.. آاه حمار!.

تبًا ألف مرة!

دائمًا كنت أؤمن بالنظام، وبصحة بنيانه وقوانينه، واثقا بأنه الحق وما سواه بهتان وضلال مبين. وفجأة، وبعد أن كويت بنار النظام، الذي خسرت الكثيرون، جراء دفاعي عنه، واعتناقي لمذهبه، تبين لي أني كنت مخطئًا، وكعادة كل حمار، تبين لي هذا متأخرًا.. كثيرًا.

(لا) كم هي جميلة ومميزة هذه الكلمة، وكم حرمت لساني من تذوق حلاوتها، وعندما بدأت في استكشافها مؤخرًا.. فقط، لم يمهلني الوقت. كنت أتمنى لو قلتها أكثر..

لا لا لا

ابني تبرّأ مني، وركلني لأقرب سلة زبالة، حين تجرّأت وأعملت تفكيري وقلت (لا)،أصدر حكمًا جائراً – أم عادلًا كان؟! – برفع حصانته عني، وتركني لملاقاة مصيري مع من ظلمتهم طوال حياتي، إيمانًا مني بأني أخدمهم، وأقوم بما فيه الصالح لهم.

أشهدكم أنني أعلم الآن ما كنت حقيقة أقوم به من تجاهل من يحتاج، لحساب خدمة من لا يستحق، فقط اسمحوا لي بأن...

فجأة انتفض مزيحًا الأوراق من أمامه..

- مافيش شيء مهم، أنا بكتب لمين أصلا! .. هههههه حتى تبًا دى مش عارف أنا بقولها لمين بالظبط، ليهم ولا لي أنا، هههه مبقيتش فارقة

عاد بثورة ملتهبة نحو أوراقه، ليخط عليها بعنف..

- يخربيت أي حد يسلم دماغه لأي حد، يخرب بيت النظام، يخرب بيتكوا كلكوا.. هههه وأنا بقى بالذات.. تبًا تبا تباااااااااا

****

- الراجل اتهبل باين!

قالها الرجل لزميله، وهما يخرجان من المصلحة، بعد انتهاء الدوام إلى الشارع الكبير، بحثًا عن أتوبيس يصلح (للشعبطة).

نظر له زميله دون اهتمام، فأشار الأول للصحيفة التي بيده..

- الراجل يا سيدي المسئول الكبير ده الى كان عليه قضايا رشاوى ومخدرات وسلاح وبلاوي زرقه قد كده، بيقولك اتجنن قبل ماينفذوا فيه حكم الإعدام وقعد يشتم في الي حواليه

تلفت زميله حوله، وهو يشرئب بعنقه، ليشاهد الأتوبيس، الذي بدأ في الاقتراب..

- لا حول ولا قوة إلا بالله، آدي نهاية كل ظالم ومفتري، يلا في ستين داهية.

- انت فكرك قتلوه ليه؟

نظر له زميله مستفهمًا، فأكمل بهدوء غريب:

- عشان ابتدا ينصلح حاله ويبقى بني آدم، وكمان وصلت به البجاحة أنه يقول لأ، فقال لك بس هاتوه، وللا اشمعنى يعني البلاوي الزرقا مظهرتش غير بعد ما قرر يدور ورا الراجل التاني بتاع الأسمنت

- يا سلام انت شايف كده؟

- أنا مش شايف حاجة غير اني عاوز أروح اتخمد قبل ما اروح شغل بالليل، وهما ياكلوا بعض أهو كلهم كلاب في بعض، وبعدين..

قاطعته صيحة من زميله، فالتفت بسرعة، ليجد الأتوبيس يتخاطهما، متجهًا نحو مجموعة كبيرة من العاملين أمثالهم. فانتفض اثناهما، ودون خطة مسبقة، اتجها يعدوان ناحيته.

- يخرب بيتك الأتوبيس هيفوتنا.

- يخرب بيتي! وأنا مالي!

- مش انت اللى فتحت السيرة الغبرة دي.

أخذ نفسًا كبيرا، ونط يتعلق في باب الأتوبيس، ليتلقفه الواقفون، في حين مد هو يده لزميله، الذي يهرول على الأرض، ونجح في شده إليه أخيرًا.

- على رأيك، يخرب بيته.. الأتوبيس كان هيفوتنا

- يخرب بيت أبوهم كلهم

هو وأنا .Vsأنا

- شكله يوم حلو النهاردة

تثاءب محمود في كسل، وقام بسرعة كي لا يغلبه النوم مرة أخرى، وذهب يتوضأ كي يصلي الفجر، وتناول إفطارًا سريعًا، ومن ثمّ توكل على الله.. وبدأ الاستذكار.

قطع تركيزه رنين هاتفه، فترك ما بيده، كي يرى من المتصل، ووجده صديقه ممدوح، فابتسم بمرح، وقررّ أن يحادثه، لربما يهرب من المذاكرة قليلًا!

- ازيك يا دوحه

أتاه صوت ممدوح الغاضب:

- سيبك من الشويتين دول، وقول لي فتحت عليّ ليه يا بني ادم أنت
- ههه وحشني صوتك يا حبي
- لا بتهرب من المذاكرة.. أراهنك
- صدقت يا صديقي

ضحك ممدوح، وأردف بصفاء:

- والمذاكرة عاملة ايه معاك؟
- المادة دى زفت قوي يا أخي، دا مش عتقاني حتى في كوابيسي دلوقتي

أكملا حديثهما وشكواهما المتبادلة من المذاكرة والامتحانات والتعليم وسنينه. وأخيرًا، أنهيا المحادثة، وعاد هو إلى كتبه.

- يلا نقرا شوية قرآن يفتحوا مخنا شوية بدل الهم الناقع ده

سرعان ما ترك الكتاب الكريم، والتفت مرة أخرى إلى الهاتف محدثًا نفسه.

" وللا ايه رأيك يا واد لما نتفرج شوية على التلفزيون، ونفك شوية، هي يعنى المذاكرة هتهرب ، يلا يلا أنت بتذاكر من الصبح واحنا اهو داخلين عالضهريه"

بدا على محمود الاقتناع، وشرد ذهنه قليلًا.. إنه بالفعل مرهق، وقد يحتاج إلى بعض الترويح.

"فاكر البت فاتن؟"

عقد محمود حاجبيه، وشرد بذهنه بعيدًا، وكأنما يحاول التذكر..

" فاتن زميلتنا في الفصل، أنا حاسس انها معجبة بيك"

قال محمود باستنكار:

"معجبة بي أنا !!"

لم يخدعه صوته، فقد حمل قدرًا من اللهفة تفوق ما كان به من استنكار.

"أيوة أنا متأكد"

وجد محمود نفسه يبتسم رغمًا عنه، عندما ضبط نفسه متلبسًا بمحاولة تذكر عينيها الجميلتين و..

"طب ما تكلمها دلوقت"

عقد محمود حاجبيه بشدة عند هذه النقطة، إلا أن المتحدث لم يمهله، فاستطرد قائلًا:

"أراهنك انها مستنياك تكلمها"

اتجه محمود ببصره إلى هاتفه يلتقطه..

الله أكبر الله أكبر
الله أكبر الله أكبر

ترددّ صوت الآذان، وأذهب بالصوت الآخر أدراج الرياح، فأفاق محمود، وانتفض جسده على صوت والده..

- يلا يا محمود الصلاة

هزّ محمود رأسه، كي يزيح عنه الأفكار الحمقاء، التي راودته منذ قليل، وقال بسرعة:

- حاضر يا بابا جاي

وبتحدٍ..

- لن تنتصري عليّ

قالها، وذهب كي يتوضأ. وأتى الصوت همسًا هذه المرة، وهو يقول بحقد:
" حسنًا لنا جولة قادمة "

محطة تعارف

" حسنًا لا تتأخر، سأنتظرك"

همست بها فتاة في أوائل العشرينات من عمرها، واندفعت بسرعة نحو الباب، تزمع الخروج.

- مريم إلى أين؟ ألن تفطري أولًا يا بنتي؟

التفتت مريم إلى أمها، وركضت إليها، تطبع على يدها قبلة حانية.

- كلا يا أمي لست جائعة سأتناول شيئًا سريعًا مع صديقاتي إذا ما شعرت بالجوع.

عاودت الاتجاه نحو الباب، وقالت دون أن تلتفت:

- سأخرج الآن قبل أن أتأخر يا أمي.

ألقت أمها نظرة خاطفة على ساعة الحائط وراءها..

- تتأخرين على ماذا؟! الساعة ما زالت الثامنة صباحًا!

أطلقت مريم ضحكة صافية، وقالت بمرح:

- إذا ما جلسنا نتحدث، ستأتي التاسعة، وستفوتني المحاضرة.. سلام يا أمي.

***

لن أتأخر ولكن على أن أقوم بهذا لأجلنا أولاً "

- لديك مقابلة عمل مهمة يا وليد، فلتدع الله أن تكون هذه الوظيفة من نصيبك. ستكون خطوة مهمة إذا ما كان لك نصيب ونلتها.

قالها بصوت حالم، وهو يكمل ارتداء ملابسه أمام المرآة، وابتسم عندما لمح بطرف عينه الشيب، الذي بدأ يغزو جانبي رأسه. مرت سنوات عمره الثلاثون أمامه في لحظات. من كان يصدق

أن ينتهي الشاب الخجول من دراسته الثانوية، ويحصل على المجموع الذي أهله للالتحاق بكلية من كليات القمة، ليتخرج منها، ويبدأ كفاحه الذي لا ينتهي. ياه الوقت يجري سريعًا.

انتزع نفسه من تأملاته، لينادي أمه، التي أتاه صوتها مختلطا، برائحة إفطار شهي.

- أمي.. هذا هو اليوم الموعود، ادع لي.

قالت أمه بحنان:

- موفق بإذن الله يا ولدي، لا تقلق.

ابتسم لها واتجه خارجًا، فاستوقفته بحزم:

- لا تفكر في الخروج قبل أن تتناول إفطارك أولًا.
- ولكن يا أمي سأتأخر.

قاطعته بهدوء، وهي تقدم إليه كوب الشاي بالحليب.

- لن تتأخر على شيء، فالساعة لا تزال الثامنة صباحًا.

وأردفت بعتاب مرح:

- ستشتاق إلى إفطاري، بعد أن تتزوج. فزوجتك لن تحبك مثلي.

ابتسم وتمتم، وهو يرشف من كوبه على عجل:

- أكيد يا أمي أكيد.

***

- رباه ما هذا الزحام؟! ما كان عليّ أن أتناول إفطارًا اليوم يا أمي.

قالها وليد، وهو يزفر بحنق من حرارة الجو، وأخذ يتلفت بتوتر بحثًا عن أي شيء يتحرك على أربع عجلات، وفجأة وقعت عيناه على وسيلة مناسبة، فهتف بفرح:

و هو يلوح بيده مشيرًا لتاكسي برز فجأة، وكأنما بعثته إليه أمه، كي يكف عن عتابها.

- وجدتك..

- الجامعة يا أسطى؟

اخترق الصوت وجدانه، ليقطع عليه ابتسامته. صاحب الصوت يحاول سرقة التاكسي، الذي استوقفته أنا.

عاقدًا حاجبيه، التفت إلى الناحية التي أتى منها الصوت..

- عذرًا لم أعلم أنك استوقفته فقد.. فقد كنت شاردًا، وهمّ التاكسي بالتحرك و..

قطعت عبارتها، لشعورها بعدم وجود فائدة من إكمالها، حيث استمر من أمامها على انعقادة حاجبيه، فزفرت باستسلام..

- حسنًا هو لك.

قالتها، والتفتت عنه:

- انتظري!

التفتت إليه بدهشة، لتجده يقول بتلعثم:

- أعتذر لم أكن أقصد.. لقد كنت شاردًا بالفعل.

قالت بابتسامة مجاملة، مشيرة نحو التاكسي:

- لا عليك، لقد رحل في كل الأحوال.
- ولكن لا تقلقي، لن تفوتي محاضراتكِ.

نظرت إليه بدهشة أن كيف عرفت، فأكمل بتلعثم:

- يبدو من الكتب التي تحملينها بأنكِ تدرسين و.. وستفوتين محاضراتك.

ابتسمت مريم بخجل، وتمتمت بكلمات لم يفهمها، فاكتفى بابتسامة هادئة.

- أين تدرسين؟

فوجئ بنفسه يسألها، وشعر بالقلق، خوفًا من رد فعلها. إلا أنها أجابته ببساطة:

- أدرس بكلية الهندسة، ولكنني لازلت بالسنة الأولى.

رفع حاجبيه بدهشة، وابتسم بهدوء:

- حسنًا نحن زميلان إذًا! هل يدرس لكِ الدكتور محمود علي؟

سألته بدهشة حقيقية:

- هل تدرس أنت الآخر بكلية الهندسة؟

أجابها بمرح:

- لا..

زمت شفتيها، منذرة برد فعل غاضب، فاستدرك بسرعة:

- تخرجت منذ خمس أو ست سنوات، ولدي وظيفة الحمد لله، ولكني في طريقي الآن لمقابلة عمل خاصة، بإحدى الشركات الجديدة.

- آه فهمت، ربنا يوفقك.

- أنتِ أيضًا.

صمت كلاهما عند هذه النقطة، وتخلل الفراغ القائم بينهما الواقفون، فوجدت نفسها تبتعد عنه، ووجد هو نفسه -أثناء تلفته بحثًا عن تاكسي آخر- ينظر إليها، ويتابع وقفتها بفضول.. هي أيضًا لاحظت متابعته لها، إلا أنها لم تجرؤ على النظر إليه..

- فاضي يا أسطى؟

التفتت إلي صوته عندما سمعته.. وجدته يشير إليها وإلى التاكسي، فتلفتت حولها، ومن ثم اتجهت نحوه بترقب..

- تفضلي اركبي.

وجدت نفسها تهتف بدهشة:

- هل أوقفته من أجلي؟

أجاب بابتسامة هادئة:

- نعم.

أرادت أن تشكره.. أن تسأله لمَ فعلها.. أن تبتسم له، إلا أنها لم تأت على فعل أي مما أرادته. فقط توقفت كما التمثال.

- يا آنسة ليس لدي اليوم بأكمله!

أيقظها صوت السائق المتأفف، فنظرت له بوجه جامد، وعاودت النظر إلى الشاب الواقف أمامها، والذي أشار للسائق بالتمهل.

- حاضر، هيا الآن.

أفاقت على ابتسامته، لتتركه وتتجه نحو التاكسي، لتركبه بجمود..

- ألن تأتى يا أستاذ؟

شكرت السائق كثيرًا في قرارة نفسها على سؤاله، حيث إنها أرادت أن تجد له جوابًا هي الأخرى. حسنًا.. ولمَ المواربة؟ هي تريد لحديثهما أن يستمر، دون سبب واضح. أتاها صوته الهادئ مخيبًا لآمالها..

- كلا.. لن أذهب من هذا الاتجاه.

هز السائق رأسه بعدم اهتمام، وأطرقت هي برأسها في حزن، في حين لم يزح هو عينيه عنها، وكأنه يكمل معها حديثًا صامتًا، قاطعه أصوات العربات العالية.

- ما اسمك؟

وجدت نفسها تهتف بالسؤال، غير مصدقة أنه صدر منها.

- وليد.

- وأنا مريم.

تململت في جلستها، كمن تهم بالخروج.. اقترب هو أكثر، وتحرك التاكسي دون سابق إنذار، مطلقًا نفيره العالي.

المركز الأول
القصة التي لم تفز بأي مركز

- اختر موضوعًا فريدًا لم يختره أحدٌ قبلك.
- اجمع بعض المعلومات التي من شأنها أن تضيف نكهة الجدية على عملك، ملحوظة: أكثر من استخدام المصطلحات العلمية المعقدة، التي لن تكون ذات صلة بالطبع، لأنك ستكتب رواية اجتماعية، إلا أنها ستضفي شكلًا لا بأس به من الجدية، ولا تقلق فلن يلاحظ أحد أنها ليست ذات صلة، فلا أحد يكترث لما يكتب بأسفل الصفحة على أية حال.
- ابدأ بكتابة الخطوط العريضة للفكرة التي ترغب بالتحدث عنها، حتى لا تشتتك كثرة الأفكار – إن وُجدت ــ
- لا تنس إضافة حبكة رومانسية بين البطل والبطلة.
- سيكون من البديهي إذًا – والحال هكذا – أن أذكرك بخلق ركن، ولو منزوٍ، للبطلة، لضمان بيئة رومانسية، والتي ستضمن وجود عدد لا بأس به من ذوي القلوب المرهفة.
- حاول إرضاء ذوي القلوب المرهفة بإنهاء العلاقة بالشكل الجيد المتعارف عليه. ملحوظة: صوت زغاريد وصفوف اللمبات المعلقة قد تغدوا مفيدة. ملحوظة أخرى: تذكر أن تحادث كهربائيا متخصصا.
- لإرضاء الجموع الباقية من ذوي القلوب المتحجرة، لا تتردد في قطع العلاقة. لتفعل ذلك سريعًا في الجزء الثاني من الرواية، وإن لم تستطع الانتظار، فلتكن متفائلًا، وافعله بمجرد صدورالطبعة الثانية. ملحوظة: فلتبقِ على اللمبات الكهربية، فسوف تحتاجها في مشهد العزاء، الذي تقوم به المحبوبة رثاءً لحبيبها، الذي تجرأ وقطع علاقته بها. ملحوظة أخرى: حاول أن تهدد الكهربائي بتقليل التكاليف، وإلا ستضطر لتأليف مشهد للبلدية وهم يطالبونه برخصة السيارة، وذلك لتهربه من الضرائب ومشاركته في

الأفراح، مسببًا بذلك ضررًا بالغًا وعاهة نفسية مستديمة لأقرانه الرجال، الذين يقودهم بلمباته لبداية طريق الهلاك.

- تذكر دومًا الهدف من وراء الكتابة، وهو وجود لقب لا بأس به تكتبه تحت اسمك في دعوة الفرح، ملحوظة: فلتحاول إقامة فرحك دونما إضاءة؛ فالكهربائي لم يقبل بتخفيض السعر، اعتمادًا على نظريتك بأن اللمبات تم استعمالها قبلًا.
- وأخيرًا.. وبعد أن فعلت كل هذا، فلتسمح لي بتهنئتك على الفوز الساحق. فمما لا شك فيه، أن أحدًا سيقوم باستيفاء شروط العمل الأدبي سواك.
- لا تقلق، فلن يقدر أحد على رفض عملك، فهو يحوي جميع أنواع الأدب، حيث إنه مزيج بديع من الرواية القصيرة، والتي تصلح بأن تكون قصة قصيرة عند حذف بعض الأوراق.. هو أيضًا قصة اجتماعية، عن كفاح شاب وسيم، ووصوله لفتاة الأحلام، والتي من أجلها يعكف على إجراء تجاربه في المختبر العلمي، المتواجد في نهاية الزقاق، وذلك للتوصل لسر السفر عبر الزمن لوأدها في مهدها، وهذا ما يسمي بأدب الخيال العلمي.
- مما يذكرني بعدم إهمال جانب الأكشن، فلتكتب مشهدًا عن مطاردة بين الشرطة وبين البطل أو البطلة، أو بين الشرطة وبين أى شخص؛ حتى وإن كان ضيف شرف على العمل- بشرط أن تُهزم الشرطة - وهذا سيضمن عددًا لا بأس به من قوى المعارضة، التي ستدعم موقفك ككاتب لا يستهان به و.....

- هو ده وقته؟!

قالها فايز بسخط ، وهو يبعد أوراق الملاحظات من أمامه، ولكنه أعادها بسرعة، ليزفر بحنق، ويكتب..

- ملحوظة أخيرة: اكتب مشهدًا تطالب الناس فيه بثورة ضد مصلحة الكهرباء.

أتاه صوت أمه:

- فايز انزل هات شمع.

قالتها، وفتحت باب الحجرة، لتطل على ابنها، الذي بادرها بغضب:

- شمع ايه دلوقتي.. مش شايفاني باكتب؟ انا عندى مسابقة مهمة وماعنديش وقت اضيعه وبعدين مانا قاعد في الضلمة اكتب اهو ومافيش أي مشكلة.

مطت امه شفتيها، وهمت بالاشتباك مع ابنها، إلا أن رنين الهاتف أنقذه منها، فالتقطه ليرد سريعًا..

- ازيك ياض يا حامد عامل ايه؟
- لا أنا مش هاقدر أنزل معاكم اصلي بادئ أشتغل على القصة الي هادخل بيها المسابقة.

قطع حديثه، وانعقد حاجباه، لينبئا بوجود خطب ما..

- هيهيهي امبارح كان آخر معاد! طب مش كنت تقول قبل ما اتفق مع الكهربائي.. عموما هم الخسرانين ده قصتى كانت هاتاخد المركز الأول.

وبابتسامة واسعة..

- استني يامه أنا الي هاجيب الشمع.

ستّة ـ أوّل

هناك ناس حباهم الله بمَلكة اللباقة. تجد الواحد منهم متحدثًا لبقًا، لا تمله، ولا تشبع من كلامه. ولكن في رأيي – وكما تعلمت – أن تكون متحدثًا لبقًا، فلابد وأن تكون مستمعًا جيدًا. وهذا يذكرني بقصة ما..

كان يا ما كان، في زمان غير بعيد، وفي يوم من الأيام، بنوتة صغيرة، تبلغ من العمر سنوات أربع.. وتكتب عنها مجلدات البراءة عدة أفرع.. أما الترف والدلع، فيأخذ من طولها عدة أذرع. كانت تقلب البيت رأسًا على عقب، ولا يحلو لها الكلام غير والمسلسل شغال.. كانت تنقل بصرها بهدوء بين الكراسي الشاغرة أمامها، ومن ثم تنتقي أنسب مكان بينها جميعًا.. حجر أبوها الدافئ.

حملها مرحبًا، وقبلها بحنان، وطلب منها السكوت حتى يفهم ما يدور حوله. أومأت برأسها إيجابًا، وقبلته مره أخرى بسعادة..

***

- بابا بيقولوا ايه؟؟

بدا أنه لم يسمع لشدة تركيزه مع الأحداث، فتململت على حجره قليلًا، وهززته بإصرار:

- بابا!

ابتسم الأب، وأجاب بهدوء، دون أن يزيح بصره عن التلفزيون أمامه..

- بيقول لها أنا جيت من الشغل.

تبسمت بسعادة، وهززت رأسي راضية.

- هاه.. وهي بتقول له ايه؟

قال بحنان:

- حمدالله عالسلامة

كان هذا مايحدث دومًا عند كل حلقة تقريبًا، أركض لحضن أبي، كي يقرأ لي الترجمة، ويحكي لي المسلسل. إلى أن دار هذا الحوار بعد إحدى الحلقات..

- بابا أنا بحب المسلسل ده ولما أعرف أقرا هتفرج عليه كويس

ابتسم بابا بحنان، وبهدوء قال:

- اسمعى يا روحي وانت هتفهمى، وساعتها مش لازم تقرى الترجمة.

- أيوة يا بابا بس ده مش عربي!

- اسمعى واحدة واحدة ومرة بعد مرة وانت تفهمي.

***

توقفت عن الكتابة، وتمطيت محاولة طأطأة ظهري المكسر. قمت أتحرك في فراغ الحجرة بروية، حتى وصلت إلى نافذتي المطلة على البحر الثائر، والذي خيل لي أن أمواجه الهائجة تكاد تصل برذاذها إلى الدور الثالث، حيث أقف.

- إن كان كل ما يحدث حولنا، ونمر به في حياتنا، إنما يقع ويحدث لسبب -حتى وإن خفي علينا- أو فلنقل: بالذات إذا ما خفي علينا، فلابد وأني قد أخطأت بشئ ما.

- تلقيت إنذارًا بالفصل، ولولا أن رئيسي " يعزني ويعتبرني بمثابة ابنته" كما قال لي بالحرف الواحد، كنت سأطرد دون إنذار ولا يحزنون. لماذا؟ لابد وأنكم تسألون.. حسنًا.. أعتقد بأن بابا هو

السبب! اعتقدت بأني سأظل دومًا تلك البنت الصغيرة الفرحة بمكانها في الفصل وسط أصدقائها ومدرسيها، الذين يثنون عليها وعلى عقلها، لكن الصغيرة كبرت، والفصل ازداد اتساعًا، ليتحول إلى حياة وعالم كبير لا يرحم.

***

" أولو الألباب ذكرهم الله - عز وجل – في كتابه الكريم، وأخبرنا بأن من يتفكر في خلقه لذو شأن كبير، إذًا والحال هكذا، فلابد لنا من تشغيل الدماغ، كي نعيش أفضل، ونسعد أكثر. عشان كده كنت دايما أقولك اسمعي وافهمي "

استعدت كلماته، وأنا لا زلت على تطلعي الثابت للبحر، وأمواجه التي هدأت فجأة مثلما ثارت فجأة. أنا دائمًا ما أستعيد كلمات أبي عندما أمر بضائقة.. أستعيدها يوميًا، والحال هكذا. أعتقد بأن أبي قد ارتكب خطأ ما، عندما قام بتربيتي، فلم ينتج عن تفكيري سوى إحالتي للتحقيق، وسحب الترقية.

-الله يسامحك يابويا.. ياريتك كنت سبتني مش فاهمة حاجة!

زهوة الحياة

- إنه نائم الآن. لقد مر بجراحة صعبة، إثر الحادث الذي تعرض له. لقد فعلنا ما بوسعنا، حيث إنه أتى بعد أن فقد الكثير من الدماء، ولكننا تمكنا من إسعافه، وأرى أن تتركوه يرتاح قليلًا.

تناهت إلى مسامعه تلك الكلمات، والتي تداخلت مع صوت متقطع يكرر نفسه برتابة. حاول أن يفتح عينيه، إلا أن هذا آلمه كثيرًا.

(يا إلهي، ما الذي يحدث لي)

قالها بوهن، وحاول أن يفتح عينيه مرة أخرى، حين تناهي إلى مسامعه صوت امرأة تخاطب رجل ما..

- لا أستطيع تركه بمفرده.

- حبيبتي.. نحن فقط سنكون بالغرفة المجاورة.

اقترب منها ليعدل من وضعية حجابها، ويعيد بعض الشعرات الناعمة التي تسللت خارجًا عنوة. استسلمت هي له، واتجهت للخارج، ولكنها توقفت لتلقي نظرة أخيرة على الجسد المسجى أمامها. تركها تقترب منه بهدوء لتهمس:

- حبيبي.. أمك ستكون قربك في الغرفة المجاورة.

(انتظري يا أمي.. أنا.. أنا)

- حسنًا.. فلتنادني إذا ما احتجتنى يا صغيري.

(أنا أحتاجكِ دومًا أمي)

مست كفه برفق بالغ، متخوفة من أن تتلاعب بأحد الأنابيب الدقيقة، التي تحتل فراغًا كبيرًا من جسده، في حين أغلق عينيه هو بألم، أو ربما هو لم يفتحهما أصلًا.. لا يهم. ما يهمه الآن هو يد أمه، التي تحتوي يده بحنان. يدها لم تتغير كثيرًا، فمذ كان صغيرًا

وهي تمسك به.. حينما كان يخطوا أولي خطواته، ومذ كان صغيرًا إلى أن كبر ونضج، وهي لا زالت - إن لم تكن زادت - بالحنان نفسه.

لا يدري كيف، ولكنه أخذ ينقل بصره بين يد أمه ويده هو، التي بدت له غريبة عليه، وكأنها تنتمي لآخر سواه. بدت غريبة بشعرها الأسود الكثيف، وبالرغم من كثافته، فقد استطاع رؤية العروق الزرقاء، التي بدت له متضخمة، وكأنها عروق وحش كاسر.. بدت يدًا لمجرم عتيد، لا طفل يتعثر، ويسارع بالتقاط يد أمه، التي تنجح في التقاطه بسهولة، لتضمه إليها بحنان.

(آه لا يهم.. لابد أنني أهذي)

(أعتذر منكِ أمي، لم أقصد الصراخ في وجهك)

التفتت أمه عنه، تاركة يده تفلت يدها، لتتجه نحو أبيه، الذي ينتظرها. بح صوته، وأحس بأنه يخذله، فتنحنح بقوة:

(لم أكن بوعيي حين امتدت يدي إليكِ بالسوء)

سمع خطوات أمه تبتعد عنه، فأردف بصراخ باكٍ:

(أعدكِ بألا أكررها)

(فقط لا تتركيني غاضبة)

- هيا عزيزتي.

كم كان ضعيفًا في هذه اللحظة.. حتى صوته يأبي أن يغادره.. لم يعد قويًا مثلما كان، عندما تجرأ على أمه. أمه التي تهم بمغادرته دون النظر ورائها. ولكن كلا.. لابد أن تسمعه.. لا بد وأن تتوقف كل الأصوات في الوجود إلا صوته هو.. صرخ بقوة، وقد طفرت دموعه..

(فلتقطع يدي إن كررتها أمي)

التفتت أمه وأبوه ناحيته بعنف، حينما تحول صوت الأجهزة المتقطع إلى صفير واحد متصل..

- رحماك يا إلهي!

هتف بها الأب، وهو يمسك رأسه غير مصدق أنه يشهد لحظات ابنه الأخيرة، في حين انتقلت الأم إليه بقفزة واحدة، وهي تصرخ:

- الدكتور، بسرعة أرجوكم!

- تماسك بني.. تماسك أرجوك..

(أمي.. أنا أختنق)

- أرجووك..

- أخلوا الغرفة فورًا..

قالها الطبيب بحزم، فاتجهت الممرضتان نحو الأم، في محاولة لاقتيادها بعيدًا، إلا أنها صرخت فيهما.

- سيدي أنا أحاول إنقاذ ابنكما، لابد وأن تساعدني

قالها الطبيب بسرعة وحسم، فاتجه هو نحو زوجته، التي أخذت تقاومه بعنف، وهى ترى ما يحدث مع ابنها. كانت تمر بحالة هستيرية، وهي معذورة بالطبع، فلا أحد يشعر بما تمر به. حاولت التملص من زوجها، حتى نجحت أخيرًا، واتجهت نحو ابنها، غير آبهة بالطبيب، الذي كان قد توقف في كل الأحوال عن فعل أي شيء. وانحنت نحوه تهمس في أذنه ببعض الكلمات، وهدأ كل شيء.

***

قدمت له كوب اللبن الدافئ، فتناوله دون أن ينظر لها، فاقتربت هي منه، ووقفت أمامه قاطعة شروده، فتنهد بعمق..

- لا أستطيع النوم.

- وإن أخبرتك بما يجعل من النوم مرادًا سهلًا؟

قالتها بابتسامة هادئة، وهي تتناول المصحف من على الرف القريب، في حين نظر لها متسائلا.

- قلت له سامحتك بني

قفزت الدموع من عينيه فجأة، وكأنما كانت تنتظر متوارية، فقالت بحب، وهي ترسم على شفتيها ابتسامة هانئة.

- لا داعي للقلق عليه الآن.. ابني ذهب ونحن راضون عنه.

مسحت دموعه برفق، ومسحت دموعها التي انسالت بصمت، وناولته المصحف، وفتحاه ليقرءا بعضا من آياته لأجل ابنهما، الذي أملا في أن يكون سبقهما للجنة.

وصلة حب

\ ن \

بدت سعيدة للغاية وهي تداعب أخاها الصغير، الذي تعالت ضحكاته الطفولية، يشاركها سعادتها. حملته، وقامت بطبع قبلة حانيه على وجنته، جعلته يستكين للحظة على صدرها، ومن ثمّ رفع رأسه طالبًا المزيد من اللعب. همّت هي بمداعبته مرة أخرى، إلاّ أن ارتفاع صوت هاتفها، معلنًا وصول رسالة، جذب كل انتباهها، وسرعان ما وضعت أخاها على الأرض وسط ألعابه، واتجهت من فورها نحو هاتفها، الذي ضغطت أزراره بلهفة، لتقرأ كلمات الرسالة الواردة، بعينين يملؤهما الشوق والحب.

" لقد عدت.. قابليني بعد نصف ساعة "

أغمضت عينيها، وضمّت الهاتف إليها بقوة، كأنما تضم حبيبها، وشردت بعيدًا إلى فترة لا تزيد على الستة أشهر.. بعيدًا إلى اليوم الذي قابلته فيه.. اليوم الذي شهد مولد حبهما.

- مرحبًا.. أنا علاء. أتساءل إن كان بإمكاننا التحدث قليلًا.

أدهشها سؤاله كثيرًا، ولم تدر ماذا تقول. وزاد هذا من توترها، فلم تجد كلامًا تنطق به. إلا أنّه أزاح ترددها جانبًا، وألقى به عرض الحائط، حينما قال:

- عذرًا.. لم أقصد مضايقتكِ.. سأنصرف على الفور.

وجدت نفسها تهتف بلهفة (لم تدر مصدرها حتى الآن)

- كلاّ، انتظر..

ومن ثم قالت بارتباك، حين أحست بلهفتها الزائدة:

- أعني أنك لم تضايقني إطلاقًا.

ابتسم بارتياح..

- حسنًا.. ألن تعرفيني بكِ؟

ابتسمت بخجل..

- هَنا.. اسمى هَنا.

قال بهدوء:

- اسم جميل.. سررت بلقائكِ آنسة هَنا.
- وأنا أيضًا أستاذ علاء.

ضحك ضحكة عالية..

- حسنًا.. أعتقد أنه لا داعي من استخدام الألقاب بيننا، فنحن سنصبح أصدقاء.

انتظر لوهلة، ثم أضاف:

- أليس كذلك؟

***

يا إلهي.. كم تعشق ابتسامته، وضحكته، وكلامه كله!

كلما تعود بذاكرتها إلى ذلك اليوم، لا تصدق أبدًا بأن كل هذا قد حدث فى تلك الفترة القصيرة. لقد أحبته، وأصبحت لا تتخيل

كيف ستكون حياتها بعده، حتى أنها لا تذكر كيف كانت حياتها قبله!.. والآن، عاد من سفره، ويريد أن يراها، لأنه اشتاق إليها.

- لقد عاد علاء يا هَنا.

قالتها بهمس خافت، كيلا تفيق من حالة الهيام التي تعيشها. إلاّ أنها قد أفاقت منها - بالرغم عنها - على صرخات أخيها عمرو، المعترض على انشغالها عنه، وسط زخم مشاعرها وذكرياتها.

اتجهت نحوه، وجلست بجانبه، فمدّ لها يده الصغيره، يريد منها أن تحمله. إلاّ أنها ربتت على رأسه بعجل..

- عذرًا حبيبي.. فهَنا مشغولة الآن.

قبلته بحنان، وهمست فى أذنه:

- هنا ستقابل علاء.. لا تخبر أحدًا.. اتفقنا؟

جاوبتها ضحكات عمرو البريئة، والتي سرعان ماتحولت إلى صرخات غاضبة، عندما التفتت عنه متجهة نحو أمها، تطلب منها الاعتناء بالصغير. ومن ثم أسرعت إلي غرفتها، كي تستعد للقاء.

\ ض \

جلست هَنا أمام مرآتها تتزين، بعد أن أبدلت ملابسها. وأخذت - بعناية شديدة- تنتقى زينتها. ولمَ لا؟ فهي ستقابل حبيبها، وتريد أن

تكون أمامه فى أحسن صورة. كانت ترتدي رداءً ورديّ اللون، تتخلله ورود صغيرة، حمراء كحمرة وجهها الأبيض المشرب بحمرة خفيفة، تزداد جمالًا عندما تشعر بالخجل. تركت شعرها الطويل الناعم منسدلًا على كتفيها، مما زادها جمالا. أخذت ترسم عينيها البنيتين، التي لا تملك سوى أن تنظر لهما، وتقع أسير بريقهما، فزادها الكحل جاذبية وعمقًا.. مرّت بالـ (باودر)على أنفها المستدق، الذي تأتي من تحته شفتان حمراوان فى لون الفاكهة الطازجة، لم تحتج معهما سوى إضافة ملمع بسيط عديم اللون. لقد كانت فى مجملها ملاكًا.. ملاكًا على وشك أن يترك سماه، وينزل مضطرًا دنيا البشر.

***

أخذت تنظر إلى عقارب الساعة بلهفة، لم تدر لمَ يمر الوقت بكل هذا البطء وهو بعيد عنها. ولم تجد أفضل من ذكرياتهما، تحنن من قسوة الانتظار. تذكرت كيف كانت تشعر بالسعادة، عندما ترى ابتسامته. تذكرت أيضًا دموعها، والتي كثيرًا ما بلّلت وسادتها، عندما كانا يتشاجران، أو عندما كان يخبرها بأى ضائقة يمر بها. لقد كانت تفرح لفرحه، وتحزن لحزنه. تذكر جيدًا يوم أن طلب رؤيتها.. تملكها خجل شديد حينها، ورفضت مطلبه كثيرًا، حتى اتهمها بأنها لا تثق به، فوافقت بعد أن وعدها بأنها ستكون المرة الأولى والأخيرة.

تذكرت أول رسالة أرسلها إليها عبر الهاتف، وذلك بعد محاولات كثيرة منه لمعرفة رقم الهاتف، ومحاولات أكثر كي تسمح له بمراسلتها عبره. لم تنس أول همسة حب سمعتها من بين شفتيه.. لم تنس أيضًا كيف سخرت صديقتها الوحيدة من كلامها حين

صرحت لها بحبه.. أخبرتها بأن هذا ليس حبا، بل وتمادت في غيرتها، لتطلب منها أن تقطع علاقتها به. تنهدت، وتجهم وجهها عند تلك النقطة، ووجدت نفسها تهمس لنفسها بضيق:

- أجل.. إنها تغار ولا شك.

أعادت النظر إلى الساعة، فوجدتها لم تتحرك كثيرًا، فتنهدت، وعاودت الشرود نحو شهر مضى، حين أخبرها بأنه تمكن من إيجاد عمل رائع، وبراتب مغرٍ أيضًا. وأخبرها بين كلماته – التي تذكرها جيدًا- أنه سيبدأ التفكير فى خطوة، كان قد أجّلها منذ زمن. وجدت نفسها تبتسم بخجل، وقد أطرقت برأسها أرضًا، وهي تعلم جيدًا فى قرارة نفسها أنه قد أتى اليوم -ولا شك- لإخبارها بتلك الخطوة، التي طالما انتظرها طويلًا، وعاشت تحلم بها، و..

- مرحبًا.. لقد أتيت.

أضاءت شاشة الحاسوب بتلك العبارة، فانتفضت هَنا، وأطلقت، ووضعت يدها على قلبها، لتخفض صوت دقاته العنيفة المتسارعة. اتجهت من فورها إلى جهاز الحاسوب، وجلست أمام شاشته، لتكتب بأصابع مرتجفة:

- حمدًا لله على سلامتك.

قالتها، وانتظرت حتى تهدئ من دقات قلبها، التي لم تلبث أن تزايدت بعنف، عند رؤية كلماته.

- أوحشتِني.

اغرورقت عيناها بالدموع، ووجدت نفسها تهمس:

" وأنت أيضاً يا علاء.. أوحشتني كثيرا"

سارعت بترجمة كلماتها عبر أصابعها المرتجفة، وقالت بخجل:

- أنت أيضا.

سألها بمرح:

- أنا أيضا ماذا؟

أطرقت برأسها بخجل، وكأنما يراها. ولما طال صمتها، كتب إليها:

- أريد أن أسمعها يا هَنا.

أرغمت أصابعها على الكتابة..

- أوحشتني.

قالتها، وأطرقت برأسها، وكأنما تهرب من عينيه، بالرغم من معرفتها التامة بأنه لا يراها.

- لا داعي للخجل.

هكذا كان دومًا يفهمها، حتى دون أن يراها. وكان هذا يدهشها للغاية، ويشعرها براحة أكبر معه. كانت عيناها تتحرك بلهفة، كي تقرأ كل مايرسله إليها. ورأته يرسل إليها دعوة حتى يراها، إلا أنها قالت بخجل:

- ألم تعدني بألا تراني ثانية؟

أجابها بحزن :

- بلى.. ولكنك أوحشتني كثيرا، ولهذا أردت رؤيتكِ. كما أنني حافظت على اتفاقنا، ولم أحاول محادثتكِ على هاتفك طوال الفترة الماضية.

صمت قليلا، ومن ثم كتب قائلًا:

- أهكذا تكافئينني؟ بثقتك الزائدة في!

صمت طويلا.. ولما طال صمته، كتبت:

- حسنًا يا علاء.. لا تغضب.

لم تجد ردًا، فأعادت الكتابة:

- أرجوك لا تغضب، فأنا لم أقصد.

علاء؟؟

- أنا هنا.

- لمَ لم ترد على إذاً؟!

- عذرًا عزيزتي.. لقد كنت أتحدث عبر الهاتف. أردت رؤيتكِ وسماع صوتكِ أيضا، لأنني افتقدتكِ كثيرا يا رضوى.

ظنت أنها لم تقرأ الاسم جيدًا، فأعادت قراءته كثيرا، غير مكترثة بما أرسله من كلمات بعدها، فقد بدا عليه أنه لم يتنبه إلى ما كتبه، و..

- هل تتحدث إلى أحد غيري يا علاء؟!!

توقف عن الكتابة دفعة واحدة..

- ماذا تقصدين؟ كلا بالطبع أنا لا أحادث سواكِ.

لم ترد عليه، فاستطرد قائلا :

- هَنا.. أنت تعلمين أنني لم أحادث أحدا غيرك.. بـ..

قاطعته، ودموعها تعميها عن الكتابة:

- من تكون رضوى إذًا؟ !

- هل هي من كنت تحادثها عبر هاتفك؟

***

\ج\

شعرت هَنا برأسها يدور، وقد فقدت القدرة على النطق أو الكتابة. فقط أبقت على عينيها الواسعتين مفتوحتين، ومسلطتين على الشاشة، لا تقرأ منها شيئًا.

BUZZ!!

تحاملت على آلامها، وكتبت..

- حسنًا.. أنا أسمعك.

- حمداً لله.. اسمعيني الآن، رضوى هي ابنة عمي، وقد كنت أحادثها على الهاتف حينما كنت أكلمكِ، ولهذا فقد أخطأت بالاسم عـ..

قاطعته بعنف:

- ولمَ كنت تحادثها؟؟

صمت طويلا، ومن ثم كتب جملة أذهلت هَنا، وأذهبت البقية الباقية من عقلها و صدمتها.. صدمتها كثيرا..

***

- لقد ارتبطت ورضوى منذ أسبوع يا هَنا.

هَنا.. هل تسمعينني؟

أرسل إليها الكثير والكثير من التنبيهات، إلاّ أن هنا لم تستجب. تركت لدموعها العنان، وظلت مجمدة كالتمثال، تشهد نهاية حبها قبل أن تبدأ.

- هَنا، أنا لم أقصد أن أخفي الأمر عنك. لقد حدث الأمر سريعا، وعندما واتتني أول فرصة لإخبارك، أتيت إليكِ.

قالها، وابتسم ابتسامته التي طالما عشقتها وحلمت بها.. الابتسامة التي تحرقها الآن، وتكرهها كما لم تكره شيئا في حياتها كلها.

- لماذا؟!!

سألها بهدوء:

- أتعنين لمَ الارتباط الآن؟

لقد استلمت وظيفة جيدة كما تعلمين، وهي ذات راتب مغرٍ ورائع. أما عن رضوى، فهي ابنة عمي، وهى فتاة رائعة. أنا واثق من أنك ستحبينها كثيرا عندما ترينها.

" أهذه هى الخطوة التي كنت تخبئها لي يا علاء؟ لماذا فعلت بي هذا؟ لماذا؟ "

علا صوت نحيبها، وأخفت عينيها، حتى لا ترى كلماته الآخذة في التراص بآلية على الشاشة الصماء، والتي يخبرها فيها برغبته بأن تصبح وابنة عمه أصدقاء!!

- مبروك.

أجابها بابتسامة أرسلها مع كلامه..

- عقبالك يا جميلة

تجاهلت تعليقه..

- أظن بأنها النهاية، رجاء، قم بمسح رقم هاتفي، واقطع كل اتصالاتك بي، وانس أنك رأيتني يومًا.

تنهدت بعمق، ومن ثم أكملت:

- فأنت مرتبط بأخرى الآن، وأنا لم يعد لي مكان بحياتك.

- ماذا؟!! ولماذا تكون النهاية يا هَنا؟!! فنحن أصدقاء، وبإمكاننا أن نظل كذلك.

وجدت نفسها تبتسم بسخرية بالرغم منها، وهمست لنفسها:

" أصدقاء!!"

قالتها، وعاودت دموعها الانهمار بلا توقف، وكتبت من وسط دموعها:

- لا يمكننا أن نصبح أصدقاء.

- ولم لا؟!!

أجابته بسرعة، كي لا تغلبها مشاعرها:

- لأنك لم تكن صديقي أبدًا.. وداعًا!

***

- أوحشتني يا صغيري.

أعلم أنك غاضب مني، لأني لم ألعب معك منذ فترة، ولكن أختك..

قطعت كلامها، وتنهدت:

- أختك كانت تعبة بعض الشيء.

أصدر عمرو بعض الكلمات المبهمة الطفولية، فانتشلته هَنا من وسط ألعابه، تضمه إليها. أخذ يضرب وجه أخته بمرح طفولي، فأطلقت ضحكة عالية.

- أعلم أنك تسامحني.

صمتت قليلا، ومن ثم همست فى أذنه:

- عدني يا عمرو، عندما تكبر وتصبح شابا تتهافت عليه الفتيات، ألاّ تجرح قلوبهن.

نظرت إليه بحنان..

- أتعدني بذلك؟

أخذ يجذب أخته من رأسها، وينثر شعرها، في حين استسلمت هي له، وضمته إلى صدرها بحنان.

انتفاء

التفت الأسرة الصغيرة حول التلفاز، يتابعون باهتمام الحوار التلفزيوني، الذي تقوم به المذيعة الشابة، مستضيفة بطلاً من أبطال حرب أكتوبر، والذين لم يترددوا يومًا في التضحية بدمائهم من أجل (البلد). أدت برودة الطقس لانكماش الطفل الصغير بين يدي أمه، التي ابتسمت بحنان، وهي تتابع عينيه الصغيرتين اللتين تتابعان بدورهما الحوار الماثل أمامه. لم يكن يفهم معظم مايتحدثون عنه، إلا أنه أصر على البقاء والمشاهدة، بعدما أخبره أبوه بأن العجوز الذي أمامه في التلفاز كان يومًا شابًا يافعًا، تهتز وتتساقط أمام شجاعته وإيمانه أي مشاعر أخرى سلبية، وذلك لأنه كان يحب وطنه.

أعلنت المذيعة الشابة عن وجود فاصل إعلاني، فقامت الأم تصنع المزيد من المشروبات الساخنة، وتعاود إخبار صغيرها بضرورة ذهابه للنوم من أجل المدرسة غدًا، فهب من مكانه، وقال بعناد الأطفال:

- عاوز أكمل البرنامج يا ماما.

اكتفت الأم بالنظر إلى أبيه نظرة ذات مغزى، فتنحنح وهو يزيح بصره عن التلفاز، ويحدث ابنه بهدوء قائلًا:

- معاد نومك فات يا وائل.

اقترب منه وائل بتوسل، وقال بإلحاح:

- بس يا بابا عاوز أشوف الباقي والنبي، عاوز أعرف هو كان ليه شجاع لما...

قطع حديثه إثر انعقادة حاجبي والده، فما كان منه سوى أن أطرق برأسه أرضًا، ليكمل باستسلام..

- خلاص يا بابا..

قالها، وأعطى ظهره للتلفاز، مستعدًا للتوجه نحو غرفته..

- الانتماء.

أعاد نظره إلى أبيه باهتمام، متسائلًا عن ماهية الكلمة:

- كان شجاع عشان كان عنده انتماء لبلده.

عقد وائل حاجبيه، وكأنما يعي الكلمة في عقله الصغير، في حين أكمل أبوه بابتسامة خفيفة، وهو يخفض صوته، ويشير لابنه أن يقترب، كي لا تسمعه أمه..

- هكلمك عن الانتماء ده بكرة.

وغمز بعينيه مردفًا:

- واحنا بنتفرج على إعادة البرنامج سوا يا بطل.

تهللت أسارير الصغير، ذو العشرة أعوام، وأطلق ضحكة فرحة عالية، فأتاه صوت أمه غاضبًا..

- وبعدين يا وائل؟

- خلاص يا ماما اهه.

اتجه بخطوات أقرب للركض نحو غرفته، ومن ثم توقف فجأة، وكأنما تذكر شيئًا هامًا، ليلتفت نحو أبيه..

- بابا..

التفت الأب إلى ابنه بتساؤل، واتسعت ابتسامته..

- عاوز يبقي عندي انتماء زيه!

**

- فاتني كتير؟

ألقت سلوى بالسؤال السابق، وهي تقدم لزوجها كوب الشاي الساخن، فشكرها، دون أن يزيح عينيه عن التلفاز، وأجاب بتمتمات لم تفهمها، فابتسمت بهدوء، وتابعت بدورها الحوار، حتى وصل إلى نهايته، حينما شكرت المذيعة الشابة ضيفها، ومن ثم وجهت حديثها إلى المشاهدين، تخبرهم بأن ينتظروا الحلقة القادمة مع الفنانة المشهورة..

Cut

قالها المخرج من خلال مذياعه الخاص، فتمتمت المذيعة بكلمات بسيطة، واتجهت نحو ضيفها العجوز، والذي بدا أنه اكتسب المزيد والمزيد من السنوات، ريثما انطفأت الأضواء المسلطة عليه.

- كان لقاءً جميلًا.

قام الرجل بصعوبة، وهو يتمتم:

- شكرًا بنتي.

سألته، وهي تقوم بلملمة حاجياتها.

- محتاج مساعدة؟ مين هيوصلك بيتك؟

هم بإجابتها، إلا أن جلبة زملائها الآتية من مدخل الاستوديو. تطالبها بالقدوم قد منعتها، فشعرت بالحرج منه، إلا أنه أشار إليها أن تذهب إليهم، وهذا ما فعلته، دونما تردد، تاركة إياه وحده، ليسرح بتفكيره نحو الأيام الخوالي، ويتساءل عن انتفاء أو صحة اختياراته وقراراته، منذ أن قرر التضحية بكل شيء وأي شيء،

في سبيل الهدف الأسمى. لا يذكر كم عدد التضحيات التي قدمها، ولا يهتم بذلك، لقد فقد الاهتمام بكل ما حوله، عندما رحل عنه من حوله، وتركوه يعاني وحده ذكرى الماضي.

قطع تفكيره، ليتمتم بابتسامة ساخرة:

- مبقيتش فارقة

***

- انت فين يا بابا؟

قالها وائل، وهو يهرول بحثًا عن والده، كي يشاهدا معًا البرنامج كما وعده الأمس. أتاه صوت أبيه من الداخل، فسارع بإلقاء حاجياته، واتجه من فوره إليه، ليجده أمام التلفاز، فسأل بسرعة:

- بدأ؟

- أبدًا، قول لماما إن الإعادة هتبتدي.

- الإعادة يا ماما.

صرخ بها وائل مباشرة في أذن أبيه، الذي ضربه بخفة.

- يابني قلتلك قل لها لوحدها، مش لكل جيراننا معاها.

ضحكا معًا، وأتت أمه بالفعل، وعلى وجهها ابتسامة متسائلة، إلا أن الصغير لم يمهلها، فقد صفق بيديه، عندما أعلنت القناة عن اقتراب بدء البرنامج التلفزيوني، فابتسمت أمه أن فهمت.

" نعتذر عن هذا، ولكن ورد إلينا خبر محزن، وهو وفاة البطل الذي استضفناه بالأمس، وذلك إثر أزمة قلبية حادة أودت بحياته. كان يعاني بطلنا من أمراض الشيخوخة، ولم تعنه مدخراته القليلة

على استكمال العلاج، ولكن الدولة كانت تنوي علاجه على نفقتها الخاصة، إلا أن القدر لم يمهلها.."

استرسل الصوت في الحديث برتابة، في حين شهقت الأم من وقع المفاجأة، وعقد الأب حاجبيه، في حين تمتم وائل بتساؤل خافت برئ:

- هو في بطل بيموت؟

أشاح الأب ببصره عن التلفاز، وقام بإطفائه..

- البقاء لله.

- أيوة بس هو كان تعبان، طب ليه مخدش علاج؟

- دي إرادة ربنا وكلنا هنموت.

قال الولد بحزم، بدا غريبا مقارنة مع سنوات عمره البض.

- كلنا هنموت، بس هو مكانش لازم يموت لوحده، أنت قلتلى امبارح انه كان عنده حاجة اسمها انتماء، وكان بيحب البلد. ازاى بقي البلد كمان متحبوش وتسيبه يموت لوحده.

لم يجد الأب ما يقوله، واكتفت الأم بأن ضمته إليها..

- أنا مش عاوز أموت لوحدي يا ماما.

- بعيد الشر عنك يا حبيبي، ماتقولش كده.

رفع رأسه من حضنها قليلًا، ليواجه نظرات أبيه:

- أنا مش عاوز الانتماء ده يا بابا خلاص.

و عاد لدفس رأسه بين ثنايا صدر أمه الحنون.

أعق◌َل مجنونة

" قررنا نحن وكيل نيابة قسم (...) بإحالة المتهمة (...) لمستشفي الأمراض النفسية والعصبية، وذلك للتأكد من سلامة قواها العقلية."

***

جلست أحملق فيما حولي، فوجدتها حجرة كئيبة واسعة وفارغة من كل شيء، باستثناء مكتب من الصاج الصدئ، الذي يشي بقدمه وتهالكه، تناثرت عليه بعض الأوراق دون ترتيب. لم يكن المكتب هو الشيء الوحيد القديم، ولكن الجدران كذلك بدت عتيقة بطلائها المتقشر، والرطوبة التي أكلت جزءا كبيرا من المحارة، فأطل الطوب الأحمر، كالدم النازف بين الشقوق المتعددة في ثنايا الجدار.

كنت أقضم أظافري بعنف، وقمت بخطى متعثرة نحو الشباك الوحيد في الغرفة، أحاول فتحه، وبصعوبة نجحت، وكدت أطلق تنهيدة حارة، إلا أنها تحولت -بالرغم مني- لزفرة ضيق، حين وقعت عيناي على المشهد المطل من الشباك، حيث كان فناء ضيق ملئ بالخرق والمخلفات القذرة، فأغلقته بعنف، وعدت نحو الكرسي الوحيد في مقابلة المكتب الصدئ.

***

اسمي لا يهم، ولكن بإمكانكم أن تنادوني (وفاء) إن شئتم.. سني كذلك لا يهم، فأنا توقفت عن حسابه مذ قابلت الرجل الذي تزوجني. أما حكايتي، فهي ما سأخبركم به، فانتبهوا إليّ جيدًا.

كنت ابنة وحيدة، لأسرة بسيطة جدا، مكونة من أبي، الموظف الحكومي الكادح، وأمي ربة المنزل. وسرعان ما اقتصرت أسرتي على أمي، بعد أن مات أبي، وتركنا بمفردنا أمي وأنا - نعاني مصاعب الحياة، التي لا تتورع عن التحرش بنا، دون ذنب اقترفناه سوى أننا بلا عائل.

اضطررت النزول للبحث عن عمل بالإعدادية، التي حصلت عليها قبل أن أترك المدرسة. وبعد بحث مضنٍ، قبِل بي صاحب محل ملابس، فحمدت الله لوجود عائد مادي يساندنا إلى جانب الملاليم، التي نتحصل عليها (بطلوع الضرس) من معاش أبي. تدهورت صحة أمي فجأة، وكأنما أصابها القنوط من فكرة العيش بعد أن مات رفيقها، فماتت بعد رحلة علاج قصيرة.

كنت أعرف الرجل الذي تزوجني بحكم الجيرة، فقد كان صاحب البيت الذي نسكن به. بعد العزاء، أخبرني بأنه لن يقوم بإخراجي من الشقة، ولكن على كذلك ألا أتقاعس عن دفع الإيجار. معاش أبي وأجري الذي أتلقاه من المحل كانا بالكاد يكفياني أنا وأمي. وبعد رحيلها، لم أجد مشكلة كبيرة في تجويع نفسي، خوفًا من مغبة إلقائي في الشارع. لم أشتكِ، ولكن صاحب البيت هو من اشتكى بغلو الأسعار، وكان يسمعني هذه الاسطوانة كلما لاقاني صدفة أو غيره. بعدها، قام بإخراجي من الشقة، ليسكنني بحجرة على السطوح، لا تخلو من الفراخ والبط. لم أعترض بحرف واحد، حتى أتى اليوم الذي قال لي -دون مواربة- بأنه يريد أن يتزوجني، كي (يستتني ويهنيني) لأني خسارة في هذه العيشة، مثلما رأى.

كان سن الرجل أقل بعام أو اثنين عن عمر أبي.. كنت أناديه عمو، إلا أني لم أقف أمام هذا العائق كثيرًا.. فقط توترت، حينما أخبرني بأن زواجنا سيكون عرفيًا، لأن أم العيال -الساكنة في الدور التحتاني- لن تسمح بزواجه، وستقيم الدنيا وتقعدها إذا ما اكتشفت

الأمر، كما اشترط عليّ ألا ننجب، وهذا الشرط أراحني أكثر، وأزال ما بي من توتر، خلقه الشرط الأول. لم تكن لي شروط سوى الاحتفاظ بعملي، وقد وافق هو دون معارضة تذكر.

اعتقدت أني سأرتاح، وسأجد حنانًا من الرجل يعوضني عن موت أمي وفقدان أبي. إلا أني وجدت الكثير من الأشياء، ليس من ضمنها الراحة ولا الأمان. كان الرجل مجنونًا ولا شك، فقد كان يرغمني على مشاهدة الأفلام الإباحية، أفلام (الحب كله) كما كان يحب أن يسميها- متحججًا بأن هذا من شأنه أن يزيدني علامًا وخبرة، لم أجدها في المدارس. ولكن ما كان يحيرني حقًا، هو أنه كان يضربني ضربًا مبرحًا دون سبب، كلما أراد أن يختلي بي!.. لا أذكر أني منعته عني يومًا، ولكنه كان يضربني في كل الأحوال. كان يقول بأنها استثارته الوحيدة، كي يستمتع بي. وكان بعدما ينتهي مني ينحيني بعيدًا، وكأنما يتخلص من كلب أجرب، ويرميني ببعض الجنيهات، ويولي ظهره ماشيًا!

توالت الأيام بتواتر رتيب، لا يميزه شيء، وتوالت معها العلق والضربات والكدمات، كلما كان يأتيني راغبًا في إطفاء شهواته.

لست أدري لمَ لم أفكر في الهرب.. ولكن كيف كان لي أن أترك المكان الوحيد، الذي يذكرني بأبي وأمي. فأنا لست على معرفة بأي أقارب لي. ربما كنت أشفق على الرجل، فكما أخبرتكم، لابد وأنه مجنون. أو لعلني أصبت بعدوى الجنون منه.. من يدري!

*****

تتناقل الكثير من الأمثلة القديمة على لسان الناس في شارعنا. كنت أسمعهم يقولون (من عاشر القوم أربعين يوم) حسنًا أنا أعاشر الرجل منذ فترة أطول بكثير، لربما انتقلت لي عدوى جنونه!

فار جسدي، ونضجت ثماره، وزادت معها العلق الساخنة. كان الرجل - والحق يقال- لا يملني أبدًا. ولكني كنت بدأت أمّله، ولهذا عمدت إلي إثارة جنونه وغيظه. حدث مرة أن أتى إلي يضربني - مثلما اعتاد- ففوجئ بي أنقض عليه، وأقضم أذنه، حتى بدأ في الصراخ والولولة كالنسوان، وظل فترة طويلة بعدها لا يقربني. إلا أنه عاد يضربني أشد من السابق، حتى أنه كسر يدي، جراء ليّه لها. وكانت هذه أول مرة أفكر فيها بالهرب منه، ومن المنزل، ومن الحياة بأكملها.. وحاولت الانتحار.

حاولت تقطيع شراييني، وكادت خطتي تنجح، حيث إني كنت وحدي، مثلما اعتدت. ولكن حظى العاثر أبى إلا أن يكون هو منقذي. فأثناء طلوعه إليّ، وجدنى أفرفر، فسارع بنقلي إلى مستشفي الطوارئ. أخبرني بأنه أنقذ حياتي، كي يزهقها هو حسبما يريد. بعد هذه المحاولة الفاشلة، لم أتوقف، وقد أعجبتني الفكرة، واستلذذت بطعمها، فأخذت أقطع جسدي وأخدشه بأظافري. مقت جسدي، وكرهت كونه السبب في انتهاكه لي، لذا قررت أن يشاركه به كل من أراد.

أصبحت أتفنن في استثارة كل الرجال، من أعرفهم، ومن لا أعرفهم. لم يستطع أي رجل إلا أن يذعن، ويستمع لندءات جسدي الصارخة بالأنوثة.

قررت الانتقام منهم جميعًا، فهم بدوا لي على نفس صورته.. جميعهم أحبوني وكرهوني لشئ واحد. المكوجي، والبقال، وصبي القهوة، وبياع الفجل.. أستاذ عبده المدرس الفاضل.. وغيرهم وغيرهم.. لم يسلم منهم أحد.

كنت أشعر باللذة وبالاستمتاع معهم كلهم، إلا هو. صاحب المحل الذي أعمل به كان يشاغلنى هو الآخر، وكنت أنهاه عني، بحجة

أني مازلت صغيرة. ولكن عندما نضجت، وضقت بالرجل الذي تزوجني طفلة، ناديته أنا، فهرع إليّ صاغرًا.

كنت أنحني لمسح الأرضية، وتعمدت مع انحناءتي أن أظهر جزء كبيرا من ساقي، وكان هو لا يرفع عينه عني، في حين تشاغلت عنه، حتى انتهيت، وكان صبره قد قارب على الانتهاء هو الآخر. تأففت، لاعنة حظي العاثر.. مشيت بموازاة صاحب المحل، الذي حول ناظره لرقبتي وصدري.. وأخذت أعدد مساوئ زوجي اللئيم التي لا تنتهي. جذبني إليه فجأة، فاندفعت إلى الوراء، مبدية استنكاري، ففوجئت بالجدار البارد. وبدلًا من الجري سريعًا، انزويت – بغير عمد - في الركن، فقال من وسط لهاثه: سيبك منه وتعالي.

بقيت في مكاني، فاقترب هو مني، عاصرًا جسدي بالحائط: دانتي خسارة في أهله.

وبتأوهات مدروسة، سمحت لنفسي بانتهاكه، وبالانتقام منه.. وكالغر الساذج أقبل هو، وكان ما أردت.

***

وسرعان ما مللت الأمر برمته. كان بإمكاني أن أهرب الآن إلى أي مكان أريد، لأبدأ حياة جديدة، وأتعرف ما شئت من الرجال إن أردت. ولكني كرهتهم، وزهدت رغباتهم الشهوانية العفنة. لم يعد شيء يثير استمتاعي.. حتى إيذائي لجسدي لم يعد يأتي بالنتيجة المطلوبة.. لقداكتفيت، وهذا قراري.

لم أكن قد أعلمت الرجل الذي تزوجني بعد، فرغبت أن تكون النهاية معه، كما كانت البداية. فأنا وفية لمن علمني كل شيء

أعرفه اليوم، ولذا اخترت أن ألتقي به -لآخر مرة- قبل أن أخبره بما انتويت. ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه، فبعد أن دعوته إليّ شعرت فجأة بنفور عجيب، ظنه هو الطبيعي، كما هو معتاد مني. ومد يده يشد شعري، فانتزعت السكين، وأغمدته حتى مقبضه في قلبه. شاهدت جسده وهو ينتفض -على غير المعتاد- لاحتضاره هذه المرة.

ارتديت ملابسي، واتجهت نحو الباب.. توقفت، ووضعت يدي في جيبي، أخرج منها بعض النقود، ورميتها عليه.

***

انتزعني صرير الباب من ذكرياتي، وأفقت من شرودي لمرأى الطبيب العجوز، الذي لابد وأن يكون منوطًا بدراسة حالتي العصبية، لتقديم تقرير بها إلي النيابة، التي أتيت منها رأسا. تنحنح ليعلمني بقدومه، فما زدت شيئًا من تعبير وجهي، فنظر هو إلى الأوراق بين يديه، وباشر بسؤالي:

- قمتِ بالذهاب إلى قسم الشرطة، ورفضتِ الحديث مع أحد سوى وكيل النيابة، متحججة بأن ما لديكِ هام جدا.

رفع رأسه يجوس في وجهي، وأكمل:

- جريمة قتل.. هاه؟

لم أحرك ساكنًا، فزوي ما بين حاجبيه..

- ولكن يبدو أنكِ أخطأتِ بذكر تفاصيلها، حيث أفدتِ بأن القاتل هو السيد (...) الذي وجد مصفى الدم في نفس العنوان، الذي أخبرتهم به، وأبلغتِ بأن القتيل هو أنتِ، هل لكِ أن تخبريني ما الذي عنيته بذلك بالله عليكِ؟

- فلتسألهم، أنا أخبرتهم بكل تفاصيل الحكاية لتوي.

قلت جملتي، مشيرة بيدي إلى لا مكان؛ ولكن لم يبد على الطبيب التأثر. لابد وأنه معتاد على مثل هذه الإجابات من المرضى. لا أخفيكم سرًا أنه يبدو وسيمًا، بنظارته الطبية، وشيبه الذي خط فوديه.. آاه.. إنه يذكرني بأبي.. ولكني زهدت الرجال، كما قلت لكم، وأنا لا أكذب.

ولكنه حقًا جيد الهيئة، تبدو عليه الصرامة؛ ولكن بشكل طيب. اممم.. من الممكن أن أحاول مرة أخرى؛ ولكنها ستكون الأخيرة. أعدكم بشرفي.

- دكتور!

نظر إليّ متسائلًا، ومن ثم فغر فاه دهشة، حينما غمزت له بعيني:

- بوس الواوا؟!

م. ط. ج

ل = A+

مقدمة

بدأت كتابة مذكراتي، وأنا بعد في الثامنة من عمري، أو أقل بقليل. بالطبع لم يكن سبق وأن دخلت في معترك الحياة، فأنا لم أكن قد فارقت باب بيتنا أساسًا؛ ولكن هذا لم يمنعني من تنفيذ الفكرة. وفي الحقيقة، لم أكن لأنفذها إلا لو وجدت التشجيع الكافي من أهل البيت، ولهذا فقد اخترت أن تكون موضوعاتي الأولى، في تلك المذكرات، متلخصة في تفنني وإبداعي، في محاولات بحثي الدائبة وراء السبل، التي تمكنني من رد الجميل لأهلي، وتشجيعهم إياي، فاحتل النصيب الأكبر من يومياتي شتائم لكل من سولت له نفسه إثارة ضيقي من أهل البيت.

لو بحثنا في المعجم عن أصل م. ط. ج، ستجد عدة خيارات منها: مزيكا وطبلة وجيتار، مكونين ثلاثي هواياتي، التي لم أقم بها أبدًا.. أو مربى وطماطم وجوز هند، مكونين ثلاثي الفواكه، التي لم أحبها أبدًا – هذا إذا ما اعتبرنا جوز هند من الموالح، أو - وهذا أبعد خيار من وجهة نظري – مذكرات طالبة مجتهدة، مكونين ثلاثي أكثر ثلاث كلمات يثيرون ضحكي، وإليكم السبب..

***

تعالت هتافات الفرح، وصيحات الانتصار التي تناقلتها الفتيات فى أروقة الجامعة، والتي يوجد بها القسم الذي أدرس به (اللغات والترجمة)

أي لغات وأي ترجمة؟ أرجوكم لا تسألوني، فأنا مجرد طالبة هناك.

الجامعة.. ذلك الصرح العظيم، الذي يقف شامخًا متحديا رغبة وآمال كل الطالبات المجتهدات فى أن يأتى اليوم الذي نخرج فيه من بيوتنا متجهات الى الكلية بكل حب وشوق و.. لهفة لنجدها قد احترقت عن بكرة أبيها (أو جدها) أو انهارت أساساتها نتاج زلزال خطير بمقدار عشرميت ريختر (بتوع علمي، لإجراء العملية الحسابية اضرب فى عشرين على طول)

تعود عظمة كليتنا إلى تحديها كل دعواتنا الصادقة والملتهبة فى أن يذهب طاقم التدريس لدينا (الوحشين بس، الحلوين لا يا عم الحاج، لمده بسيطه تيجى بتاع عشرميت سنة ضوئية) (لحساب المسافة، برضه اضرب فى عشرين على طول)

فى بعثة إلى كوكب المريخ، لتبادل المعلومات اللغوية، ولسماع السكان الاصليين (الناتيف سبيكر يعنى) وذلك اثراءً لروح الوحدة، وتمهيدًا لإنشاء سوق لغوية وقواعدية مشتركة بين بنات لغات والبنات المريخيات..

واحد يقاطعني ويقول لي طب اشمعنى المريخ بالذات؟

هاقول له لأن المريخ هو الكوكب المشهور اللي اتعمل عنه أفلام رعب كتير، وفى إشاعة يعرفها قلة غير قليلة، مفادها أنه الموطن الأصلي لـ Alien

إلا أن السبب الحقيقي يرجع لإشاعة (برضه)، يعرفها قلة غير قليلة (برضه) بإن طاقم التدريس لدينا من أهل المريخ.

واحد هيقول لي: يعني انتِ كنتِ شفتِ حد من أهل المريخ قبل كده؟

هقوم أنا أقول له: ماهم بعيدين كل البعد عن البشر اللي زينا، وكلمة زيادة هطلعك برة الكتاب.

احنا كنا بنقول ايه..؟؟ آه بنقول..

واذا ما تمت العملية بنجاح، فسوف يتم مد السوق إلى جميع المجرة والمجرات المجاورة، ولقد قمت (مشكورة) بعرض الفكرة على سيادة رئيس القسم، باسم فاعل خير بالطبع (مابحبش اشكر فى نفسي) إلا أن طلبي قوبل بالرفض (المتعنت طبعا)،

وبقى رئيس القسم، وبقى طاقم التدريس كله، ليخرج لنا لسانه ويقول بكل أدب:

" كان غيركم أشطر قاعدين على قلبكم، واللي مش عاجبه ياخد أول تذكرة على زحل "

وكانت هذه بداية الحرب، حربًا شعواء، لست أدري من أين أبدأها ولا أي جزئية أخصها بالذكر، ربما يوم النتيجة..

الفرحة بالنجاح خاصة جدا، لا تعادلها أي فرحة أخرى. فهي جميلة ولذيذة، وتبث فى نفسك كمًا هائلًا من التفاؤل والثقة والقوة.. التفاؤل بشأن السنين القادمة، الثقة فى أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، والقوة في أن تكمل ما بدأته، حتى مع الصعوبات والتحديات اليومية التي تقابلك. لم أستطع النوم حينها.. فقط ظللت أتقلب في فراشي حتي طلوع الشمس، حيث سمعت الديك بيقول كاك كاك كاك، وسبت الحلوة تعجن براحتها، واتجهت أنا بالدعاء لربنا أن يوفقني، ويجعلها خيرًا.

- يارب وفقني ونولني اللي في بالي

- يارب انت عارف انا تعبت قد ايه

- يارب ماتشمتش فى الأعادى

يقاطع توسلاتي صوت رنين الهاتف (التليفون يعني)

- يارب خد اللي بيتصل فى الوقت ده

- الوو

- الو ايوة، انت لسة نايمة؟

- مش رديت عليكِ؟ يبقي بديهي أني ابقى لسة نايمة أيوة.

- وكمان لك نفس تهرجي؟

- ومااهرجش ليه، أنا عارفة أنا تعبت قد ايه وإن شاء الله خير

بعد الكثير من الدعوات الأموية، والتي تخللها بعض النصائح الكتييرة، التي تتلخص حول فكرة نبيلة واحدة، وهي: ضرورة بقائي هادئة، اتجهت من فوري مع نجاة، وقابلتنا إحدى الصديقات، التي بدأت في الركض نحونا، غير قادرة سوى على النطق بحرف واحد، أو بعدة حروف في الواقع..

(ننننن)

بسرعة البرق، ارتسمت نظرة ارتياع على وجه نجاة، وهي تتلقى صديقتنا، التي أصرت على الحفاظ على خطوتين أو ثلاثة بيننا!

- اممممم، نمشى معاكِ شويه قدام؟؟

- ايه يابنتي، نجحنا؟

- نم ننجح؟؟

لكزتني نجاة هاتفة بضيق:

- وده وقت تهريج؟

- انتِ بتقولي لي أنا؟ طب ماتقولي للـ...

قاطعتنا سيدة كبيرة، كانت تبدو عليها أمارات الطيبة، بأن اقتربت من نجاة، مزيحة شيئا ما من على كتفها، فما كان من الصديقة إلا أن تنهدت بعمق:

- نحلة كانت عليكِ

طبعًا هذا الموقف يعكس طبيعة معينة لدي البنات، لا مجال لذكرها هنا، لربما في موضع آخر. المهم أنه -وبعد انتهاء هذا المشهد- اتجهنا مكملين مسيرتنا، التي أخذت تزداد بمقابلتنا أخريات، جئن من أجل الهدف نفسه.

***

هششششششششش

كان هذا الهشش هو الصوت الوحيد، والطابع الغالب على المكان. مضت دقائق خمسة، وكلنا واقفات ننظر إلى بعضنا البعض برجاء، ولسان حالنا يقول بهدوء الدنيا كله:

أبوس ايدك روحى شوفى النتيجة واقريهالنا

- احم.. يا جماعة النتيجة دى بالعربي. وأنا لغات يا اخواننا. افهموني بس..

لم أكمل الجملة بتاعتى، ووجدتنى أنطلق للأمام بقوة دفع خفية، أبت إلا أن تمارس قانونها على قفا.. احم.. ظهري..

المهم إنها كادت أن توقعني على وشي.

- ماشي يا بنات... احنا كده متفقين على المبدأ، أنا..

قاطعتني زمجرة خافتة، وصوت مخالب تسن فى الحائط المقابل.

هنا بقى كان لازم أعترف أني ابتديت أخاف، وثقتي (اللي أصلا مش لاقيها من امبارح ابتدت (بقول ابتدت) تروح مني)

قمت بتسليط أنظاري على اللوحة المكتوب بها النتائج، و..

- معلش يا جماعة.. أنا تقريبا كده نسيت نضارة القراية بتاعتي في البيت، هاروح بسرعة.

زمجرة أخرى أكثر قوة، وصوت أظافر تتكسر على الحائط..

- هههههه يا جماعه بهزر معاكو

قمت بتثبيت النظارة على وجهي..

- تمام تمام لقيتها اهه

أخذت نفسًا عميقًا، وحككت رأسي، ومن ثم قمت بحك أذني، وجذبت إحدى الواقفات من يدها، وحككت رأسها، ووجدت نفسي لازلت محتارة جدا..

- يعنى ايه (ل) دي؟؟

قلتها، فشهق البعض، في حين اتجهت الأخريات من فورهن نحوي. اعتقدت أنهم عايزين ينتقموا مني أنا، فقمت بتسلق الدكة بجانبي، ولم ينقذني سوى قدوم أستاذ طارق.

- فى ايه يا بنات؟ ايه الدوشه دي؟؟ فى حد أغمى عليه ولا انتم ملمومين على ايه؟

البنات بغل، وفي نفس واحد، كفريق من الزومبي (الموتى اللي مش أحياء): لا يا أستاذ بس فى واحدة على وشك اهوه ومحتاجة عربية اسعاف ياريت تطلبها.

- انا مش فاهم حاجة!! انتم جايين هنا ليه؟؟ انتم..

قطع كلامه فجأة، عندما رآني متعلقه بلمبة السقف..

- ازيك.. الله! أنت ايه اللي طلعك عندك كده؟

أنا، بابتسامة خجلى:

- لا ولا حاجه يا أستاذ.. دانا بس كنت بطارد دبانة رخمة مضايقاني من أول الترم، وأنت عارفني بقى لما بتعصب.

- أنا مش سامع حاجة، اهدو يا بنات، هو انتم مش قسم لغات برضه؟

- أيوه يا أستاذ.

- طب دانتو نتيجتكم بانت.

أنا بذهول مدهوش (آه والله زي مابقول لكم كده.. مدهووش)

- لا يا شيخ؟!! بتتكلم جد؟

هو بابتسامة واسعة..

- آآه وربنا.

ومن ثم (بعد كده يعني) ازدادات ابتسامته اتساعا..

- مبروك يا بنات.

فجأة، توقف السيل الذي كان يتسلق الجدران والزحف على الأرض، ونط الحبال، والعروض النارية والساحر، واتجهت الأنظار إلى الضحية الجديدة.. الأستاذ المسكين اللي جه وارتكب غلطة عمره، بالتعرض لبنات فى حالة فرح بنتيجتهم.

ده كان راجل طيب قووووي

قال بهدوء (اسم الله عليه) دون أن يلاحظ ما يحاك حوله (تشيرته اتقطع نسيبه كده؟ ولا نحيكهوله؟)

- انما انتم ليه هنا؟ دي نتيجة قسم تاريخ.

رفع نظره إليّ مبتسمًا، وأكمل قائلا:

- نتيجتكم في الناحية التانية من المبنى. أنا لسه معلقها بنفسي دلوقتي.

قمت بتعديل وضع نضارتي، التي بدأت في الانزلاق عن وجهي، وأضفت بهمس (مكانش له أي لازمة وقتها، حيث لم يسمعه أحد):

- احم.. أنا قلتلكم اني نسيت النضارة..

بس برضه بحب الراجل ده قوى، هيوحشنى والله!

أمسكته نجاة من ياقة قميصه بعنف..

- نتيجة ايه؟ بقول لكم جعانة.. جعانة.. انتم مافيش إحساس خالص؟؟ كده؟؟ أنت... أنا... أنت قلت ايه؟؟

- اااااه ... اااااه

وسرعان ما انضم إليها جميع البنات، في صوت موسيقي واحد، وانضم إليهم أيضا الفراشين والحرس وبتاع البسكوت اللي بيعمل شاي. اتجهن (هم صح حالتهم وحشة بس لسه بنات، فلازم ضمير الإناث) مسرعات إلى مكان النتيجة.

- هيييييييييه نسيوني الحمد لله.

ومرت ساعات وأيام وشهور، وشمس تطلع وتغيب وترجع تطلع تاني، والديك قرفني كاك كاك كاك (نفس الديك اللي كان في بداية الورق.. يكونش مستقصدني؟) أنا عموما أخدت قرار بنتف ريشه و..

- آلو.. ماما حبيبتي.. أنا بس بتكلم عشان أقول لك إني عملت زي ماقلتِ لي بالظبط.. أنا هادية خاااااااالص اهو، ممكن بقى حد ييجى يسلكني من اللمبه دي؟؟

مرارة السُّكر

غريب هذا المكان ! الأغرب أنه امتلأ بالرواد، حتى امتلأت الكراسي، المتراصة على الجانبين في صفين طويلين، أو كادت. تجمعت بعض الكراسي حول طاولات هزيلة، مغطاة بمفارش مهترئة، في حين ظلت الكراسي الأخري واقفة وحدها.
بدا جميع الجالسين وكأن على رؤسهم الطير، وجوه متلبدة مكفهرة لا يميزها شيء صمت يليق بجنازة، الثغور فجوات لا طائل من ورائها، العيون بدت خاوية فارغة باهتة، والأجساد بدت متخشبة بلا حركات تميزها اللهم إلا حركات هش الذباب.

كانت الرياح منعدمة -أو كادت- في ذلك اليوم، فانتشر الذباب بشكل غير طبيعي، غير آبه بحرارة الجو. كان البحر موجودًا، وغير موجود. لم أكن يومًا من هواة البحر، كنت أشعر بالدوار إذا ما نظرت إليه.. كنت أخافه، وكأنه ينظر إليّ متحديًا. وفي هذا اليوم، أثار خوفي أكثر، حينما بدا هادئًا -على غير المعتاد- وكأنما يضمر شرًا لكل الموجودين أمامه، الذين لا يهتمون به، ولا يرفعون عيونهم الناعسة إليه. إذا ما كانت لديّ القدرة على رؤية شاطئه في الجانب الآخر، لفورًا تخيلته فك وحش، يتأهب للانقضاض علي فريسته.. ولكانت مياهه المغلية هي وسيلة قضائه على فرائسه. بحق، كان المكان غريبًا، ولكن أكثر ما لفت انتباهي وجعلني؛ بل اضطرني وجذبني رغما عني للجلوس.. كان هو.

شعلة من اللهب المتراقص، يتحرك بخفة ونشاط وهمة لتوزيع المشروبات والعصائر على الرواد المتناثرين في المكان، والذين لم يكلفوا ثغورهم عناء الابتسام له، أو شكره بهمهات لا معنى لها. ومع هذا، فلم يتوقف ولم يثن هذا من عزيمته في شيء. استمر في التنقل من طاولة لأخرى، ومن فرد لآخر، دون كلل أو ملل. لم أكن أنتوي طلب أي شيء، فلم أكن في حالة تسمح لي. ولكن عندما رأيته، وهزني نشاطه، قررت طلب كوبٍ من العصير.. أي عصير، كي يقترب مني، علّه ينقل إليّ عدوى نشاطه. اقترب

مني، ووضع أمامي كوب العصير.. كنت أنتوي تبادل الحديث معه، أي حديث وأي كلمات وأي هراء، المهم أني أردت معرفة سر طاقته.. ولكنه وضع العصير واختفى عني، لأجده في الجانب المقابل.. يا إلهي!.. كم هو سريع..!

استمر على حركته، ودأبت أنا على متابعته. قربت كوب العصير من فمي، أرتشف منه.. وسمعت الصفعة. وجدت وجهه يتغير، لتختفي ابتسامته، ويظهر امتقاعه.. بدا وكأن رب عمله يؤنبه على شيء ما قد اقترفه. لست أتخيل وجود شيء يكون قد اقترفه هذا الملاك الصغير؛ ولكن كان لرب العمل رأي آخر، فقد أخذ ينهره بكلام لم أسمع منه حرفًا، إلا أنه بدا مذعنًا خاضعًا، وهو يطأطئ برأسه في سرعة. التفت عنه الرجل.. أبعدت الكوب عني، وقد وجدت لسكره طعم العلقم. أخذ هو نفسًا عميقًا، زفره بقوة.. نظر إلى الأرض دقيقة، ورفع رأسه، بابتسامته التي وجدتها على وجهه مذ رأيته.. ومضى يوزع الطلبات.

وِصال

كان عم جمال يكتب إليّ كشف البضاعة، التي يحتاجها المحل، وكنت أنا أذكره بصنف أو اثنين يكون قد نسيهما، في غمرة انشغاله وكبر سنه.

"ربنا يصلح حالك يابني".. هكذا يقول لي دومًا، وهو يملس على ظهري، رحمة بأبي (الطيب النضيف) كما يحب دومًا أن يصفه. عم جمال جارنا، كان رجلًا طيبًا وهاشًا باشًا، يحبه جميع من في الشارع، على عكس ابنه فهمي، الذي كرهه كل من بالشارع.. حتى الشارع نفسه، والشوارع المجاورة كذلك. صحيح.. يخلق من ظهر العالم فاسد!

حدث ذات مرة، أن جاءت إحدى زبائن المحل تشتكي انتقاص الباقي، الذي أعطيته لابنها، فأخبرتها -بلهجة مهذبة- بأني قمت بعد الفلوس بنفسي، وسلمتها يد الصغير. وأضفت بلهجة أكثر تهذيبًا:

- ممكن يكون وقعها في الشارع يا ست أم أحمد.

تأهبت للخروج، حتي أبحث عنها في الموضع، الذي مشى منه الصغير، فأوقفني صوت فهمي، الذي يتطاير منه الشرر.

(يكبرني فهمي بسنتين، إلا أنه كان زميلي بالدراسة، لأنه دائمًا ما كان يرسب، ويثير بهذا غضب عم جمال الطيب وقنوطه من ابنه الفاشل. أثار هذا حفيظة فهمي تجاهي، حيث إنني -علي النقيض- كنت دائمًا أحوز أعلى الدرجات، حتى دخلت كلية من كليات القمة، وأخذ هو الدبلوم بالعافية. وحين أتيت للعمل بالمحل، أحسست وكأنه سعد لهذا، كي يثأر لكرامته المجروحة، ويتحرش بي كلما لاحت له الفرصة.. وما أكثرها!)

- انت سايب المحل ورايح فين بسلامتك؟

قالها، وابتسامة متهكمة ترسم نفسها على وجهه المكفهر. فتململت السيدة في وقفتها، وكأنها ترغب بترك الباقي كله والهرب من وشه.. في حين التفت له أنا بابتسامة، كمن اعتدت منه تلك اللهجة..

- أبدا.. كنت هادور على الباقي اللي وقع من أحمد عشان..

قاطعني مزمجرا:

- باقي ايه وتدور ايه، انت اديتهوله وللا لأ؟

أومأت بالإيجاب، فالتفت إلى أم أحمد بتأفف:

- روحي يا ست دوري عالفلوس اللي ابنك وقعها.

مصمصت الست شفتيها، غير مقتنعة بالطريقة الجافة التي يكلمها بها فهمي.

- يا سي فهمي مش كده، خلي لسانك حلو زي أبوك الحاج، ده بلسم وكل..

- أنت هتحكي لي قصة حياتك؟ ده محل أكل عيش مش قهوة يا ولية.

تدخلت أنا، حتى لا يتطور الأمر..

- معلش يا ست أم أحمد. خلاص يا فهمي، أنا..

قاطعني، والشرر يتطاير من عينيه..

- ولا معلش ولا زفت. هي بعد كده مش عاجبها ماتبقاش تبعت عيل صغير يوقع الفلوس. وانت لو رحت في حتة هتحصلها وماتجيش هنا تاني.

تحركت الست للخارج، وهي تتمتم بكلمات غاضبة، وتضرب ابنها الصغير، الذي خانه حظه العاثر، وجعله يوقع النقود. التفت أنا له بهدوء..

- أنا سبتك تقول اللي انت عاوزه قدامها، ولكن ماينفعش تكلمني كده قدام الزباين.

- ليه يا سعادة السفير؟

تجاهلت السخرية، التي تتقاطر مع رائحة فيه الكريهة..

- عم جمال بس هو اللي من حقه يكلمني كده، ويهددني بالطرد، إنما أنت..

قاطعني، وهو يجذبني من ياقة قميصي..

- أنا ابنه اللي كلمته بتمشي بعده.

تحفزت للانقضاض عليه، فمنعني صوت عم جمال الغاضب:

- ايه الي بيحصل قدامي ده؟ شيل إيدك من على صابر يا فهمي.

بادره باندفاع:

- يابا ده بيعلي صوته علي وكأنه ابن وزير.

- يافهمي مش كده احنا كنا اصحاب.

التفت إليّ مكملًا باندفاع:

- الله يرحم أبوك.. ده كان مش لاقي يأكلكم انتم السبعة وياما استلف من أبويا.

هنا تدخل عم جمال زاجرا إياه بشدة، انكمش لها فهمي، وخرج من المحل، لا يلوي على شيء.

- ماتاخدش في بالك يابني. أبوك كان طول عمره نضيف، وعمره ما مد إيده لحاجة حرام.

آاه.. ليتك بقيت معي يا عم جمال.. تركتني، مثلما تركني أبي قبلك.. بدا حلمي في انصلاح الحال يخفت رويدًا رويدًا الآن.. فبعد موتك، قلص فهمي أجري إلى النصف، وقد ارتضيته أنا صاغرًا، بعد أن حفيت وتورمت قدماي بحثًا عن وظيفة، يكفلها لي مؤهلي العالي. ولكن كان لابد لي من نسيان العمل بالسلك الدبلوماسي، فهو لـ (ولاد الذوات) فقط، وأنا بالطبع أنتمي للفئة العظمى من الشعب (ولاد الكلب). نحن من يحفرون الصخر، في محاولة بائسة للحفاظ – لا على القمة كما قد يظن البعض – ولكن على حالتهم المتوسطة، الآخذة قوة الشلال في انحدارها للدرك الأسفل.

- سامحنى يابا.. ماقصدش أغلط فيك والله، ولكن انت سبت لي حمل تقيل قوي مش عارف انت كنت شايله لوحدك ازاي، وبعد ما بعت حتة الأرضية الصغيرة اللي حيلتنا مابقاش قدامي غير الشغلانات الصغيرة بتاعة الملاليم وقلة أدب فهمي.

***

مات عم جمال الطيب، وتُركت لمواجهة فهمي وحدي، لا يعينني سوى صبري وطول بالي، خوفًا على مصير إخوتي الستة. أذعنت، وقبلت كثيرًا من الذل والمهانة. فبعد أن كان عملي يقتصر على القيام بحسابات المحل، والاهتمام بتحضير كشوف البضاعة، ومساعدة زبون أو اثنين ريثما يعود عم جمال من صلاة أو غداء أو أي مصلحة أخرى، صرت أقضي الجزء الأكبر من وقتي بالمحل، حيث كان فهمي ينام للعصر، ولا يأتي المحل إلا ليأخذ الإيراد. صرت أهتم بكل شيء، وأقوم بكل شيء بيدي، دون

انتظار مساعدة من فهمي. كنت أصبر وفاء لذكرى عم جمال، واحتياجًا للنقود.

ولكن حدث ذات يوم -شديد الحرارة كان- حيث ارتفعت الشمس في كبد السماء، ترمي الناس تحتها بألسنة ساخنة، تلهب وجوههم وأجسادهم كالسياط، فلجئوا إلى بيوتهم، كالفئران تهرب إلى جحورها.. وزاد من الحرارة انقطاع الكهرباء لبعض الإصلاحات، التي يتغنون بها، والهم الناقع الذي يفلقونا به. أخذ عرقي يتصبب غزيرًا، ولكني كنت قد اعتدته، فلم أشغل بالي بإزاحته عني. فقط اكتفيت بإسناد ظهري المكدود على الكرسي، آملًا ألا يأتي أحد من الزبائن الآن.

ولكن راحتي لم تدم طويلًا، حيث توقفت أمامي عربة لإحدى شركات الأغذية، التي نتعامل معها، لم يختر صاحبها سوى هذا الوقت لتنزيل البضاعة التي طلبناها.

ولكن ما ذنبه؟.. هو مثلي يسعى وراء لقمة عيشه.

تنهدت، وذهبت إليه أصافحه، وبدأت في تحويل البضائع التي طلبناها. تسلق سلم عربته الربع نقل بخفة اعتادها، وبدأ يلقي إليّ بالكراتين والعلب، كيفما اتفق. وكنت اتجه بها من فوري إلى المخزن، الذي يبعد عن المحل مقدار مترين أو ثلاثة، إلا أنه بدا لي بعيدًا فدانين ثلاثة في هذا القيظ. قمت بتسوية جوال الدقيق، وحملته على ظهري الملتهب، أتجه به إلى المخزن. جذب انتباهي صوت غاضب، يكيل الشتائم، ويسب من أمامه بلا انقطاع.

- يلا اتحرك جتك البلا في شكلك، عليك وعللي جابتك.

التفت نحوهما بالرغم مني، فوجدته يحمل حمولة كبيرة على ظهره النحيل، الذي برزت عظامه، تعلن عن ضعفه ووهنه. كان يتحرك ببطء، وكأن الإرهاق قد بلغ منه شأنًا عظيما هو الآخر. لم

يصدر عنه صوت واحد، ولم يتوقف ليلقي نظرة على من يسبه.. كان مثلي، يتلقى الإهانة وهو صام أذنيه عنها، دافس عينيه في الرمال كما النعامة.. (أوَيكون هذا أنا؟!) هذا ما أظنه.. كان يشبهني كثيرًا في تلك اللحظة، هو بحمولته العظيمة على ظهره، وأنا بجوال الدقيق الذي يكاد يدغدغ عظامي. أخذت نفسًا عميقًا، وتشجعت حينما وجدت أن حمولته أكثر كثيرًا من جوالي.. التقت نظراتنا، حين كنت أهم بدخول المخزن.. ثبتتني عيناه في موضعي، غير آبه بحمولتي، فلم ألقها، ولم أتحرك كذلك.. شعرت وكأنها تخترقني، وكأنه يبثني عتابًا وشكوى لا صوت لهما، فهمست متأكدًا بأنه لن يسمعني

- معلش اصبر.

وأومأت له برأسي، فنظر هو للأرض، وهز رأسه يمنة ويسرة، كأنما يرد عليّ بأن لا خيار لديه سوى هذا. عاد صاحبه يشتمه، ويضربه على ظهره..

- شيبي.. أما حمار ابن جزمة صحيح!

تجاوزني، دون أن يعيد نظره إليّ، فتابعته لحظة، ومن ثم تذكرت حملي، الذي يؤرق ظهري، فدخلت. وأتاني من الخارج صوت نهيقه الطويل. ألقيت الجوال بالمخزن، وخرجت.

كلمة شكــر

لمن يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم يستحقون..
شكـــرًا

عزة

صدر للكاتبة:

المرآة.. روايتان، عن دار ليلي للنشر والتوزيع

للتواصل:

صفحة الكتاب على الفيس بوك

أو

Azza.bondok@hotmail.com

الفهرس:

1	مسألة غباء
2	حِمل السنين
3	أول كلمة حب
4	وقفة \ تشغيل
5	وَ أتت بداية
6	ديستوبيا
7	كُسوف
8	عذرًا فأنا أملك أطفالًا
9	أمواج

10	انتفاضة أخيرة
11	أنا .VS هو وأنا
12	محطة تعارف
13	المركز الأول.. القصة التي لم تفوز بأي مركز
14	ستّة – أوّل
15	زهوة الحياة
16	وصلة حب
17	انتفاء
18	أعقَل مجنونة
19	م. ط. ج.. ل = +A

20	مرارة السُّكر
21	وِصال
**	كلمة شكر
**	عن الكاتبة